

كـاميـل دولـز

خمسة أشهر لدى البيظان في الصحراء الغربية

ترجمة وتقديم
حسن الطـالب





كاميل دولز

خمسة أشهر لدى البيظان

في الصحراء الغربية

ترجمة وتقديم

د.حسن الطالب

أسس مركز الدراسات الصحراوية بمبادرة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط والمجلس الوطني لحقوق الإنسان ووكالة الإنعاش والتنمية الاقتصادية والاجتماعية في الأقاليم الجنوبية للمملكة والمجمع الشريف للفوسفاط.



www.etudesahariennes.ma
E-mail : etudessahariennes.um5@gmail.com
facebook.com/centredesetudes.sahariennes

الكتاب : خمسة أشهر لدى البيظان في الصحراء الغربية

المؤلف : كاميل دولز

صورة الغلاف: كاميل دولز في زي محارب

الطبعة : 2015

رقم الإيداع القانوني : 2015MO2343

ردمك: 978-9954-578-41-4

الطباعة والإخراج الفني : دار أبي رقراق للطباعة والنشر - الرباط

إهداء

إلى روح أمي الطاهرة

التي فارقْتِنا بجسدك بعد أن أضناه المرض اللعين

غير أن طيف حنانك الذي لم يفارقني قط هو عزائي الوحيد في رحيلك، ولكثرة ما أراك في منامي ليلا، أتلهف مجيء الليل لأستعيد بعضا من ملامحك الحنون ، كي أبوح لك ببعض همومي، وأسراري، فلتنعم روحك الطاهرة عند رب كريم ، ولتُخلّد صالحاتك بين الأحبة والأقربين.

حسن الطالب

تقديم المترجم

حلّ كاميل دولز، المولود بسيفيراك ليكليز(رودز) (Severac–l'eglise(Rodez)) بالمغرب في 18 أكتوبر من عام 1864، ، مدفوعا برغبة جامحة، قلما تستبدّ بفتى مثله في عمر الثانية والعشرين، لزيارة الجنوب المغربي **سوس وواد نون**. يساعده في ذلك تعلّمُه اللّغة العربية، واطّلاعه على بعض تقاليد العالم الإسلامي. ومن المعلوم تاريخيا أن سلاطين المغرب فرَضوا سلطتهم على تلك المنطقة، ولم يكن من السّهل على الغرباء، وخاصة الأوروبيين، المجيء إليها أو حتى النزول بسواحلها؛ الشيء الذي دفع الشّاب الرحّالة إلى الدُّخول إليها من جهة الصحراء ليصعَد جهة الشمال نحو **واد نون وسوس**. وفي 19 من عام 1886، قرَّر النزول بجزُر الكناري ليسافر على متن سفينة صيد، ويرسو على ساحل الصحراء عند رأس كارني Cap Garnet في منتصف الطريق الواقعة بين رأس بوجدور Cap Bojador وخليج **وادي الذهب**. ورغم كل التحذيرات والمخاطر التي نبّههُ إليها العديد من الأشخاص الذين التقى بهم في **لانزروطي**

بالكناري، إلا أنه صمّم النزول على الساحل متحديا كل ما يُخفيهِ له قدرُه الذي أبى إلا أن يكون مشؤوما، واستحالَ تجربةً مريرةً بكل ما في الكلمة من معنى. هكذا وقع الفتى في أيدي بيظان **أولاد الدليم** الذين اعتقدُوه نصرانيا جاسوساً فانقضُّوا عليه بمجرد رؤيته، فسلبوه، وكالوا له أنواعا من السباب والشتم، ثم ضربوه وعذّبوه وأوثقوهُ. وصف **دولز** هذا القسم الأولَ من اللقاء بالبيظان بلغة أدبية رائعة فاقت كل وصف. وقد نجح الشاب المغامر في إقناع البيظان بكونه مسلما عندما اهتدى إلى حيلة ذكية لحظة ردمه في حفرة وتلا عليهم سورة الفاتحة فأشفقوا عليه وأخرجوه منها، لتبدأ سلسلة من الأسئلة والتحقيقات عن أصله وسبب نزوله بالساحل ليُسْلِموا أمره، أخيرا، إلى **الشَّيخ ماء العينين**. والواقعُ أنّ الجميعَ انتهى فعلاً بالتَّعرفِ عليه مُسلماً حقيقياً لا شُبهة عليْه. ومنذ ذلك الوقت احتَضَنتْهُ قبيلةُ **أولاد الدليم**، وسكن في مُخيّمهم، وقاسَمَهُم حياتَهم لشُهور عَديدَة، متنقِّلا معهم في رحلاتِهم عبر الصّحراء المغربية، ثم تَغلْغَل مسافة خمسمائة كلم تقريبا في قلب الصَّحراء من أجل لقاء والد زوجة زعيمِه. ثم مرَّ على **كلتة زمُّور**، وقفَلَ راجعا إلى نواحي **رأس بوجدور**، وتابع مسيره حتى وصل إلى **الساقية الحمراء**. بعد ذلك رافَق زعيمَه إلى **تندوف** مرورا بـ**وادي السَّاقية الحمراء**، ثم عاد إلى **رأس جوبي** (Cap Juby). ولمّا نال عطفَ زعيمِه اقترح عليه ابنته للزواج منها حسب زعمه. وافق **دولز**، على

الفور، بل وعُقدت طقوس الخِطبة. ولكي يتمكّن الخطيبُ من دفع مهْرِ الفتاة التَمَس من سيِّده الدخول إلى المغرب، حيثُ صاحبَه والد الفتاة إلى **كولميم**، وقدَّمه إلى قائد المدينة **دحمان ولد بيروك**. ومن هناك دخل **دولز** إلى **أكادير** و**مراكش** ليُفتضح أمره، ويُتَّهم بكونه مجرد جاسوس أوروبي، فسَجَنَه السّلطان. لكن سُرعان ما تمَّ الإفراج عنه بتدخُل من القنصل الإنجليزي فنزل بـ**موكادور**، ثم مكَث لبضعة أسابيع **بآسفي**، ومن ثمّ أبحر إلى **مازغان** في اتجاه أوروبا.

بعد شهور من عَوْدتِه إلى فرنسا كُلّف **دولز** بمهمة استكشافية إلى الصّحراء. وأراد الانطلاق من **مراكش** نحو **تومبوكتو** عبر طريق القوافل. وفي شهر غشت من سنة 1888 أبحر من **طنجة** إلى **الاسكندريّة**، ووصل إلى **طُورْ** بمِصر في جزيرة سيناء، ولزِمَ مغربيان عادَ معهُما، بعد ذلك ، إلى **طنجة**، وأوهَمَهُما بأنه عاد للتوّ من مناسك الحج بمكة. ثم قرَّر، كي يذهب إلى **تومبوكتو**، المرورَ عبر **تافيلالت** و**السّاوْرَة** و**التّوَاتْ**. وفي الطَّريق أُفتُضِحَ أمرُه، وانكشفت هُوّيتُه الأوروبية، إلا أنّهُ لم يتعرّض للمُضايقة. وفي **رَقّان** استعَانَ بمُرشدين من **الطوارق**، إلا أنّهم غدَروا بِهِ وقتلُوه بدافع السّرقة قُرب واحَة **أقْبِلي** حوالي 6 من فبراير عام 1889 . [1]

(1) أنظر المقدمة التي كتبها موريس باربيي لرحلة كاميل دولز ضمن كتابه الهام "رحلات واستكشافات في الصحراء الغربية في القرن التاسع عشر" منشورات، دار l'Harmattan"، وقد استثمرنا بعض المعلومات التي جاءت في مقدمته في تقديمنا لرحلته هذه.

كتب **كاميل دولز** عام 1887، بعد رحلتِه إلى الصّحراء المغربية، حكيا مُفصَّلا عن مغامراته، ومَقامِه لدى البدو الرحلِ في الصحراء. وتصفُ قصّة الرحلة المناطقَ التي زارها وعادات أهلها وتقاليدهم. ونُشرت بداية عام 1888، مُرفَقة بصور توضيحية عديدة هي موضوع هذه الرحلة.[2]

سياق الرحلة ومميزاتها

من المعلوم أنّ الصّحراء المغربية قد شكّلت منذ العهود الغابرة موضوع اهتمام العديد من الامبراطوريات والدول الكلاسيكية كالفينقيين والوندال والرومان ، سواء لدوافع استعمارية توسعية محضة أم لدوافع تجارية واقتصادية. ولا عجب في ذلك فقد لعبت الصحراء، منذ فجر التاريخ، دورا كبيرا في إحكام الصلات السياسية والتجارية ما بين دول الساحل والجنوب حتى حدود النيجر ومالي وبين المناطق الشمالية للمغرب خاصة وإفريقيا عامة. وقد لعبت الصحراء هذا الدور رغم التقلبات التاريخية والسياسة التي عرفتها خلال تعاقب الدول (فرنسا، إسبانيا، البرتغال) عليها، وتنازعها السيطرة على جزء من أقاليمها التجارية الاستراتيجية والحيوية (وادي الذهب، بوجدور، طرفاية، السمارة). إذ ما فتئت تلك الدول تبدي اهتماما كبيرا بالمنطقة

(2) تحت عنوان «خمسة أشهر عند البيظان في الصحراء الغربية» بمجلة *Le tour du monde* عام 1888، ص ص 177 – 224.

ككل منذ القرن الخامس عشر. وأرسلت لهذا الغرض مبعوثين لها في شكل سفراء أو تابعين للمهام القنصلية أو جواسيس انتحلوا هذه الصفة، كما شجعت الجغرافيين وعلماء الآثار لكتابة تقارير شبه استخباراتية عن المنطقة وساكنتها .

لقد فتنت الصحراء خيال العديد من المؤرخين والجغرافيين والرحالة. وكانت بالفعل منطقة لرفع التحدي بالنسبة للمستكشفين والمغامرين. بعضهم كتب عنها دون أن يراها أو يزورها، واكتفى بما بلغ مسامعه من كتب السابقين من الرحالة والجغرافيين، فتراكم لديه من أخبارها وعجائبها الواقعي والمتخيل، الخرافة والأسطورة ، الصدق والكذب ...وتلك هي حال عدد من الكتاب مثل الجغرافيين الفرنسيين **إيميليان رونو** (Emilien Renou) في كتابه **الوصف الجغرافي لأمبراطورية المغرب**» **وإليزي ريكلوس** (Reclus Elisée) في كتابه «**الجغرافية الكونية الجديدة**» **والفريد دو شاتوليي**(Alfred de Chatelier). كذلك كان شأنُ الذين كتبوا عن القبائل الصحراوية وحدود الصحراء المغربية من قبيل الأمريكي **فيليكس ماثيو** (Felix Mathews) الذي شغل منصب سفير أمريكا بطنجة وكتب تقريرا ضافيا **عن سوس ودرعة** والشمال الغربي لأفريقيا .[3] أما الفريق الآخر فهو نوعان؛ الأول، وكان الدافع إلى زيارته للصحراء

(3) *Voyages et explorations au Sahara Occidental au 19 siècle*. Introduction, choix de textes et notes par Maurice Barbier, L'Harmattan, Paris,1985

دافعا سياسيا محضا، يستهدفُ جمع المعلومات وكتابة التقارير عن المنطقة، مثل ما حدث مع الكولونيل **فانسان** (Vincent) عام 1860، **وليونولد باني** عام 1859، وذلك دَيدَنُ الدُّول الاستعمارية والامبريالية كلّما همّت بالتوسّع، أو ضمّ مناطق جديدة منذ القدم. أما الفريق الثّاني، ويمثله رحالة من قبيل **كاميل دولز وروبير أدام** (Robert Adam)**وهنري دو فيريي** (Duveyrier Henri) فكان حافز المغامرة لديه، أساسا، هو استكشافُ المناطق المجهولة؛ استكشافٌ لم يستطع التخلص من تلك النظرة الاستعلائية للأجنبي القادم للحديث عن تجمعات سكانية متوحشة أبعد ما تكون عن الاحتكاك بأسباب الحضارة والمدنية الغربية، مما يجعل الكتابة عن هؤلاء الأقوام مُتعة تستثير فضول الباحثين والقراء المولعين بالعجيب الغريب أو الفانتستيك، شبيهة بمتعة عوالم ألف ليلة وليلة.

ثمّة مُلاحظة تستلفت انتباه دارس الرحلات عند اطلاعه على العديد منها، مفادها أن أغلبها يقترن بـ **حلم**، و«**إصرار**» و«**عزم**» ، و«**طمُوح**» و«**الإيمان الراسخ والعميق**» وكلها من صميم معجم **كاميل دولز**. وبغض النظر عن كل الدوافع الأخرى ، وعلى رأسها جمع المعلومات والأخبار، فإن الافتتان بالمجهول والغريب وحب المغامرة كان أهم دافع في رحلة **دولز** التي وصفها جان ماري لوكليزيو بـ «**الحلم**

المجنون»[4]. وأغلب الظن أن الفتى الشاب كان مفتونا، حقّا، بالصحراء، بعد أن سمع و قرأ عنها الكثير في الغالب، ونستبعد، بالتالي، أن يكون وراء رحلته هذه دافع سياسي أو استخباراتي صرف، بخلاف الرحلة الثانية التي مولتها الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس، والتي انتهت باغتياله ، كما هو معروف، على يد مرشدين من الطوارق.

تبدو المغامرة والمخاطرة في هذه الرحلة في أقصى تجلياتها، مدفوعة بالرغبة الجموح في استكشاف مناطق مجهولة من الصحراء الغربية، حيث تسكُن قبائل شاءت أن تكون حرّة أبدا، تجوب الصحراء بحثاً عن منبع ماء، وموضع كلأ، تستظلُّ بالغيوم، وتلتحف السماء ليلا، تقاوم الشّمس الحارقة بخيام مُحكَمَة الصنع، غير عابئة بما يُخبّئه الغد، وبإباءٍ وأنفةٍ يذودون عن قيمهم الأصيلة في الكرم، وحسن الوفادة، وتقديم القرى لكلِّ مسافر أو عابر سبيل، غير أنهم خلال تاريخهم الطويل احتفظوا بصورة مروّعة عن الأجنبي، الكافر، المسيحي، الذي لا يأتي من جهة البحر بأسلحته الفتّاكة، وسُفنه الحربية إلّا غازيا، ومستعمرا. ومن هنا جاءت تلك الأسئلة المسترسلة التي طرحها البدو الرُّحل

(4) Albert Roussane, *L'homme suiveurs de nuages, Camille Douls, Saharien. 1864-1889*. Introduction de J.M.G Le Clezio, Edition du Rouergue, 1991, p.8 .

على **كاميل دولز**، وسبب قُدومِه من جهة البحر. فالبحر، هذا الفضاء الفسيح المليء بالأمواج والمخاطر لا يمكن أن يقل خطورة عن راكبيه من النصارى الكفار. وهو ما يعكس من جهة أخرى تاريخا ممتدا وذاكرة دموية متصلة مع البحر، مع الأجنبي الكافر، مع الغازي صانع الحضارة. لكن حيلة الفتى وتقديم نفسه مسلما يقرأ الفاتحة في لحظة حرجة من مصيره، سيعطي صورة أخرى مختلفة عن هؤلاء القوم الذين يعيشون حياة متميزة، مهما تكُن موغلة في البدائية، فإنَّ لها من مقومات الحياة والعيش ما يجعلها خليقة بالتأمل والإعجاب في الوقت نفسه.

تحوّل **دولز**، فجأة، إلى مدوّن لكل صغيرة وكبيرة في رحلته الجميلة والرائعة مع كل ما يمكن أن يؤخذ عليه من قِبل المتلقِّي، من مظاهر المبالغة في وصف بعض اللحظات الحميمية كمُغازَلتِه، مثلا، للعزيزة داخل الخيمة، أو وصفه لبعض المظاهر المرتبطة بالأكل، أو كذلك وصفه لطقوس الصلاة والوضوء وغير ذلك. فقد توخّى **دولز** إيصال صورةٍ غرائبية وعجائبية عن قبائل أرادها أن تكون نموذجا للبربرية والتوحّش، بعيدا عن الموضوعية المفترضة في مثل هذه المواقف. ولربّما كان لعامِل الصّدمة النفسية وصغر السنّ، وحداثة العهد بالرِّحلة والمغامرة، تأثيرٌ كبيرٌ في توليد هذه الصور العنيفة الغرائبية مما يعْكِسُ، من جانب آخر، تلك

الصورة المنَمَّطة الاستعلائية للأوروبي المتفوِّق والمحظوظِ الصانع لمقومات الحضارة وأسبابها.

وخَلْفَ هذِه الصُّورة تبرُز صورةٌ أخرى تُحاولُ التِقاطَ أدنَى حركةٍ أو إشارةٍ أو سُلوكٍ أو تصرّف أو انطباعٍ، في الفَضَاءِ وفي البَشرِ. وهو ما يدُلُّ على حِرصٍ ووعي بمسؤولية الكتابة ووظيفتها لدى **دولز** في رسمِ صورةٍ عن البيظان وحياتِهم وعاداتهم. وكان للغرائبية الجغرافية، إن صحّ التعبير، دورٌ في تعزيز الصُّورة وكثافتها وعُنُفِها، فجاءت أوصافه دقيقة وهو يصف الوديان والتّلال والسهول والهضاب، فضلا عن العاداتِ والتّقاليد العديدَة التي حفَلت بها رحلتُه.

وتظلُّ رحلة **كاميل دولز** وثيقة أساسية في فهمِ الكثير من القضايا والأحداث التاريخية والسياسية في منطقة ظلت تتجاذبُها الأحداث والأحداث المضادة. فهي وثيقةٌ تاريخيةٌ حيّة تُسعِف الباحث في التَّعرُّفِ أكثر على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتُمَكِّنُه من رصْدِ جانب، مهما كان يسيراً، من التّطورات الداخلية التي مرّت بها التّنظيمات القبليةُ والعشائرية في الصحراء، وكذا ما كان يسودُ **سوس وواد نون** من مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والزراعية والدينية.

ويبقى الملمح الأدبي أهم ما يميِّز رحلة دولز. فقد أبانَ عن قُدرةٍ سردية أدبية هائلةٍ، صاغَها في لغة فرنسية رائقة أخّاذة ، فزاوَج، بجماليةٍ، بين تيمات الرّحلة وفتنة الحكي الأدبي الفاتن الذي يأسر القارئ من البداية حتى النهاية ممّا حوّل رحلتَه إلى لوحةٍ أدبيةٍ رائعة تستثيرُ فضول القارئ لمتابعتها والنَّهَم من سِحْرِها ومُتْعتِها التي لا تُقاوَم.

المترجم



حدود واد سوس وواد نون - رسم لـ ج. جيرارديت (J.Girardet) ، انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب.

-1-

مشروعُ رحلتي في سُوس وواد نون - قراري الدُّخولَ عبر الجنوب - ذهابي إلى جزر الكناري - مساعي في الأرخبيل وفي سانتا كروز ولاس بالماس ولانزروتي - ضيوف الفُندق الايطالي بأريسيف لانزروطي - الصيادون الكناريون - عثوري في النهاية على سفينة صيد شراعية - وداعا للحضارة.

يتّصلُ المُنحَدَر الجنوبي لجبال الأطلس في المغرب بسلسلة جبلية تتَّجهُ بشكل موازي نحو المحيط الأطلسي، لتتلاشى وسَطَ رمال الصّحراء. وتخترقُ هذه الجبال منطقتان مُميّزتان بثرائهما وخصوبتهما وظلّتا، حتّى الأزمنة الأخيرة، مستقلتَيْن[5] عن حُكم سلاطين فاس ومراكش. المنطقة

(5) هذه المنطقة كانت بلاد سيبة مقابل بلاد المخزن فعبارة الاستقلال مبالغ فيها (المترجم).

الأولى، وهي الأهمّ، **سوس**، هي منطقةٌ فلاحيةٌ محاذيةٌ للأطلس؛ أمّا الأخرى، وهي أصغر منها، **واد نون**، فهي تُمثِّل الحدود الشّمالية للصحراء، وتصلُح، بصفة خاصة، لرعْيِ المواشي. ويعيش في **سوس** سكان أصليونَ **هُمُ الأمازيغ**، أو **الشْلوح** الذين ينفردون بلغة وعادات خاصة. ويضمُّ **واد نون** ساكنة هي وسطٌ بين **الأمازيغ** و**البيظان الرُّحل** الذين يقطُنون الصّحراء الأطلنطية.

عندما اعتلى السلطان الحالي مولاي الحسن العرش اتّسمتْ أعماله الأولى بميول طموحة لإخضاع جنوب المغرب. كان شابا متّقدا، نشِطاً، ومحارباً لا يحلُم بغير الفتوحات. وعندما بسَط نُفوذَه على امبراطورية المغرب تَشَوّفَت عُيُونُه إلى ما وراء جبالِ الأطلَسِ، **سوس وواد نون**. كان يتذكَّرُ أيام سَنوات شبابه الأولى، عندما كان **وليّا للعهدِ**، وحاكماً على الفِرَق العَسْكرية لجنوب المغرب. وكان كثيرا مَا عبرَ الأطلسَ، واتخذ له قواعد في **أكادير**، أقوى المراكزِ المتقدِّمة للحدود المغربية؛ ومنه أشْرَف بنظره على سُهولِ **سوس** الخِصبةِ تترآى له من بعيد، بحقولها النَّضِرة، ووديانها التي لا تنْضَبُ، وروَابيهِ المتَموِّجة خُضْرةً. سحَرتْ هذه المناظر عيني الخليفَة الشّاب وعقلهُ. وعندما استأنَفَ طريقه إلى المغرب على رأس فرقته العسكرية، وقطَع السّهول

الجدباء، والكلسية لـ**أولاد بو السبع** أيقظتْ هذه المفارقةُ في خيالِه ذِكريات حقُول **سوس**، وبَساتينِه الجميلة، وتوقّدَت عيناه رغبةً وطموحاً إلى ضمّهِ.

تميّزت الشُّهور الأولى من عام 1886 في المغرب بحدثٍ تاريخي عظيم. فبعد حملتين بطوليتين تَمَّ إخضاع **سوس وواد نون** لنفوذِ السلطان.

وخلال أسابيع عديدة هلّلت مساجد المغرب صلاة الشّكر والحمد، واحتفل الناس في محفلٍ بهيجٍ بقوّة سلطان المغرب، وعظمتِه، وامتِداد امبراطوريته إلى فيافي الصحراء.

وغِيرةً من السلطان **مولاي الحسن** على فُتوحاتِه في **سوس وواد نون**، قامَ بمُواراتها عن أطماع الأوروبيين ، فأمْعَنَ في الحيلولة بينهم وبين منافذ المنطقة، حيث رصَفَ الحاميات على طول المناطق المأهولة في السّواحل، وأعطى أوامر صارمة لوُلاتهِ الذين لا يزالون إلى اليوم يتلقّون الأوامر باعتقال كلِّ الأوروبيين الذين تطأ أقدامهم هذه المنطقة.

بعدَ مقامي لأيّام بالمغرب، حيثُ تعلّمتُ اللغة العربية، ودرستُ عادات المسلمين، أعددتُ مشروعا لزيارة بلاد **سوس** الرائعة التي لجّتْ ألسنةُ الناس بالحديث عن

جمالها، وخصوبتها، وهي جنة حقيقية من جنان هسبريد[6] Hespérides المحروسَة بعناية فائقة. عقدتُ النِّية على السَّفر مُتنكِّرا. فقد اقتنعتُ اقتناعا لا شبهة فيه أنّ السّبيلَ العمَليَّ الوحيد للمرور، دون لفتِ انتباهِ السُّلطات المحلية إلى بلادٍ مثل **سوس**، هي أنْ أتنكّر في صورةِ مسلم. غير أن الصعوبة كانت تكمُن في نقطة الانطلاق. وحيثُ إنَّني كنتُ معروفا في الجنُوبِ المغربي، كان من التَّهوُّر أن أتنكّر في صِفَةٍ ما لاختراقِ جبالِ الأطلسِ، خوفاً مِن افتضاح أمري، وتعريضِ مآل كلّ مشاريعي المُستقبلية للخطَرِ. بالمقابل، توجدُ طريق طبيعيةٌ أخرى هي طريقُ الجنوبِ عبر **السينغال** و**الصحراء**. لكن المَصاعِب، من هذه الجهة، كانت أعْظَمَ وأشدَّ خطورةً. إذ كنتُ سأصطدمُ بالبيظان الحَضَرِيّين، وهُم أكثر الناس شَكّاً وحذراً. كان من الصّعب عليّ تبرير وجودي بينهُم، ولَعِبِ دوْر المُسلم دون أنْ أثير اهتِمامَهم. وحتى **ليوبولد باني** الذي أتقَن لعِبَ هذا الدّور وسَط البيظان، أكثَر من غَيْرِه ، لكوْنِه وُلد بـ**السينغال**، وأتقَنَ لُغة القبائلِ الصّحراويةِ، قاسَى الأمَرّين بينَهُم. أمام كل هذه المصاعب زاد إصراري على الدُّخول إلى **سوس**، وبِتُّ عاقداً العزم على زيارته. هذا

(6) يحيل دولز هنا إلى إحدى الأساطير اليونانية الشهيرة. فهسبريد هي آلهة لحوريات الماء والغابات والجبال تسكن بستانا فاتنا يوجد في الحدّ الغربي من العالم الذي يُحتمل أن يكون الضفة البحرية الفاصلة ما بين اسبانيا والمغرب. وقد عهِد الإله هيرا (Hera) إلى الحوريات بحراسة التفاح الذهبي لجنة هسبريد بواسطة التنين لادون (Ladon). (المترجم).

الإصرار هو الذي أوحى إليَّ بفكرة النُّزول بساحل الصحراء قُربَ جنوب المَغرب، وأن أتنكّر لأهالي المنطقة في صفة مُسلم غريب. وإذا أُتيح لي ذلك، وهو ما أَتمنّاه، فإني سأتمكَّنُ من الصُّعود جهةَ الشمال، وأعبُر **واد نون** و**سوس** دون لفت انتباه الأهالي، والوصولِ، أخيراً، إلى بلاد المغرب عبر الأطلس. ما يُميِّزُ مشروع رحلتي هذا، عن سابقيه، هو أنه يُجنِّبني قَطْعَ مسارٍ مزدوج. في الأخير كانت لديّ نقطةُ انطلاقٍ مناسبة جدّا بفضل مكتب إنجليزي للتوكيل الخارجي في **رأس جوبي**، الذي يسّر لي، من خلال علاقاتِهِ بالقوافل القادمَةِ من **واد نون**، سُبُلَ الوصول إلى جنوب المغرب. هذه الاعتبارات مُجتمعةً دفعتْني، إذن، إلى سَلْكِ طريقِ الجنُوبِ عبر الصَّحراء.

هكذَا أبحَرْتُ، في السّنة الماضية، على متن سفينة **هافر** (Havre) في اتجاه **جُزر الكناري**، بعد أن خطّطتُ لمساري سلفا، حاملا معِي رسائلَ تزكيةٍ من وزارة التّجارة الخارجية إلى مُعتَمدينا في المغرب.

نزلتُ في **سانتا كروز** بـ**تينريف** في 20 من شهر ديسمبر عام 1886 بعد عبورٍ دام أكثر من عشرة أيّام. فيا له مِن تناقضٍ رائع بين مُناخ هذه المنطقة، وبين مناخ أوروبا! لقد غادرتُ فرنسا في عِزٍّ فصل الشتاء، وما يصاحبُه من أمطار وغيوم، وهاأنذا أجدُ نفْسِي، بعد أيّام، في قُرى مُزهِرة، مُشْمِسَة. كان العبور عبر البحر رحلة فظيعةً. ففي خليج **كاسكون**

(Gascogne) تراقَصتْ سفينتُنا مثل قَشَّةِ تبْنٍ. وخلال يومين قَطعْنَا أربَع عُقَد[7] في السّاعة. في صبيحة اليوم العاشِر صحَا الجو فجأةً، وانْقَشعت الغيوم وهدأ البحر سريعا، ورأينا، مع أشعة الشمس الأولى في الأفق، قِمّة جبَلِ تنيريف بلونِه القرمزي، يتوارى عن أعيُننا شيئا فشيئا.

الجزُرُ الثرية! إنه الاسمُ المناسبُ لـ جُزر الكناري. بالنسبة لي لقد عرفتْ هذه الجزُر كيف تسحَرُني حَدَّ أنّي كِدْت أنسى نفسي تحت سمائِهَا الفاتنةِ. فضلا عن أنني عندما أُسأَلُ عن أحبّ البلاد إلى نفسي، وأيّها أتمنّى العيش فيها خارج وطني، كنتُ أجيب على الفور «الجُزُرُ الثَّريةُ» ـ «الجزُر الثّريةُ؟» فأين توجد هذه الجزر الثريةُ إذن؟ إنها هناك، قريبا من أوروبا، تحت بلاد المغرب، على بُعد يومٍ من الإبحار تقريبا في ذلك الساحل المُقْفِر والمُتوحِّش للصَّحراء الغربيةِ. فيا لها من مُفارقَةٍ مُدهشةٍ، أليس كذلك؟ تخيّلوا معي جوهرةً أرخبيليةً لا يكادُ المقياسُ الحراريُّ يقلُّ فيهَا في السنة عن العشرين، ولا يتجاوز الثمانية والعشرين، حيْثُ يُزهِرُ البرتقال، ويَنضُج جوزُ الهنْدِ والموز. جُزرٌ صُنِعت بإتقان، وتعكِسُ كُلّ روائع الخلْقِ الإلهي. فيها يرى الزّائر أجمَلَ النّساءِ

(7) العقدة وحدة قياس السرعة البحرية وتساوي العقدة ميلا بحريا في الساعة 1.852 كيلو متر/ساعة. وتساوي العقدة ميل بحري واحد في الساعة. (المترجم).

المناطق التي زارها دولز

بسُحنةٍ سمراءَ، وعُيونٍ سوداء واسعة. وفي الليل ينام المرءُ على إيقاع أناشيد السيريناد[8]، ويتنقّل فيها الناس بالسّيارات والجِمال. ويشربُونَ من خمر مالفوازية[9] كما تقول الأسطورة، تلك الخَمْرُ كان يعشَقُها دوقٌ من **كلارانس** (Clarence) فيما مضى إلى حدِّ الموت.

زوّدني القنصل الفرنسي البارون **شوسيريو** (Chausseriau)، الذي سكَن جُزر الكناري منذ سنين عدّة، بمعلوماتٍ دقيقةٍ عن السّاحل المجاوِر. ونظرا لمعرفتِه بالسلوك المتوحّش لبيظان الشاطئ، وبمَشَاق رِحْلتِي التي بِتُّ عاقدا العزم على خوضها، بادَر إلى التّثبيطِ من هِمَمِي قائلا:

- منذ أنْ وطِئَتْ قدمَاي هذا المكان، كثيراً ما تلقَّيتُ خبَرَ موتِ الصيّادينَ الذين نزلوا بالساحلَ الإفريقي واختفائهم، وقد بلَغ مِن صِيتِ وَحشيةِ هذه الناحية حدّا لن تجدَ معه شخصا يَقْبَلُ، في هذا الأرخبيل، اصْطِحابَك إليْهَا.

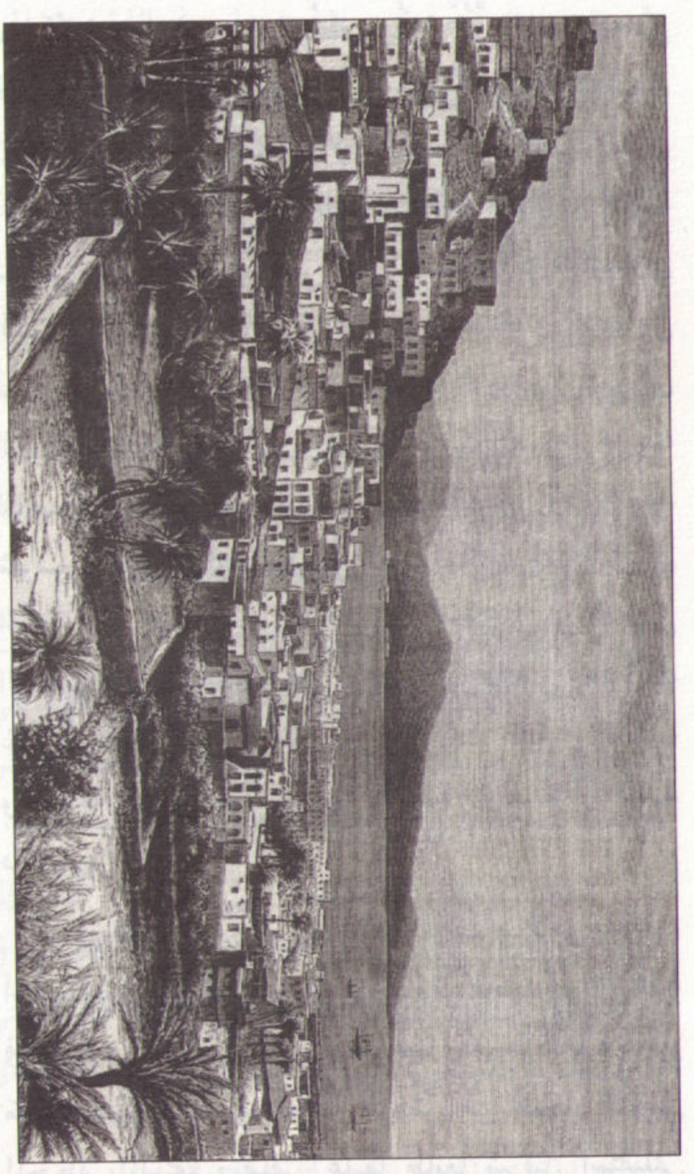
حينئذٍ أوضحتُ له كيفَ أنني أتمنّى أن أصل إلى خِداعِ البيظان، والنزولِ على ساحل جنوب المغرب في صفة رجُلٍ مُتنكّر. اندهَشَ القُنصُل في الأخير من قناعتي الراسخة، وطمُوحي، وإيماني العميق بالسّفر، فسَاعدَني

(8) أغاني ليلية ينشدها العاشقون تحت نوافذ عشيقاتهم (المترجم).

(9) خمر يونانية نسبة إلى شبه جزيرة مالفوازي (المترجم).

على تنفيذِ مشروعِ رحلتي بلُطفٍ يفُوق كُلَّ ثناء. كان عليّ أن أركبَ سفينةَ صيدٍ انجليزية من **رأس جوبي**، والوصول إلى الشمال عبر قافلةٍ للبيظان. وكانت لـ**شركة الشمال الغربي الإفريقي** (North Western Africain Compang)، التابعة **لـراس جوبي**، مكتـبٌ فـي **لاس بالـماس في الكنـاري الكُبْـرى** (Grande Canarie). وكانت السفينة، ومكتبها مِن نوعِ سُفن الصّيد السّريعة ذات الأشرعة الأربعة ، تنتمي إلى الشّركة، وتقطَعُ المَسافةَ بين الضّفتين مرةً كلّ أسبوع. عزمتُ الوصولَ إلى **رأس جوبي** على متْنِ هذِه السّفينة. زوّدَني السيّد **شوسيريو** برسَائلَ أُوصِلُها لكُلِّ الذين يمكنهم مُساعَدتي، في الضّفة الأخرى مِن جُزر الأرخبيل، وأحْضَرَ لي من القنصل الإنجليزي رسالة خاصّة لمُدير مَكتب **لاس بالماس**. بعد ذلك غادرتُ **سانتا كروز** حاملا معي ذكريات غاية في اللّطف والضيافة اللذين خصَّني بهما القنصل والمستشار **السيد دكاريوس**.

في الثامن من يناير عام 1887 نزلتُ بـ **لاس بالمَاس**، أهمُّ مدينةٍ في الأرخبيل، حيثُ يوجدُ مَقرُّ المَحكَمةِ والأسقُفيةِ في الكنارِي. لـ **لاسْ بالمَاسْ** بسطوحِها ودُورِها المَطليّة بالجيرِ مَظهَرُ مَدينةٍ إسلاميةٍ، تُكمِّلُهُ عُروشٌ من أشجارِ النَّخيلِ المُحيطةِ بالمَدينة، وتُضْفِي عليْهَا طابعاً شرقياً. استقبلني قُنصُلنا والطبيب **شيل**، أحدُ أعيان الكناري الذين درسوا



لاس بالماس ، رسم لـ ج. جيراردیت (J.Girardet) انطلاقا من صورة فوتوغرافية لـ م. الدكتور فيرنو (Verneau)

بباريس، استقبالاً حارّا. قاطعني مُدير المكتب الإنجليزي الذي أطلَعته على مشروعِ رحلتي منذُ أول وَهلةٍ قائلا:

- إن عزْمَكُم القيام بهذِه الرّحلة هو أمرٌ عديمُ الجدوى، ولن تُفْلِحوا فيه. صحيحٌ أنّه يوجدُ في مُحيط مكتبِنَا هناك بيظانٌ أوفياءٌ لنا، لكن مَا أن يبتعِدَ المسافرون عن ذلك مسيرة يوم حتى يسود الخَطر وينْعَدمَ الأمانُ. وأنا أعرفُ جيّدا تعصُّب البيظان. أُحذِّركَ، لن تستطيع قطع مائة كيلومتر بمحاذاة الساحل دون أن تتعرَّض للقتلِ أو النّهْبِ.

ولأنني كنتُ حريصاً على إقناعِه ردّ قائلا:

- من الملاحَظ أنّك تجهَلُ البيظان. وأدعو الله ألّا تعرفَهُم أبدا. أمام إصرارِكَ قد أكون رؤوفا بكَ إذا لم أُتِحْ لك إمكانية الوُصولِ إلى مكتبِنَا.

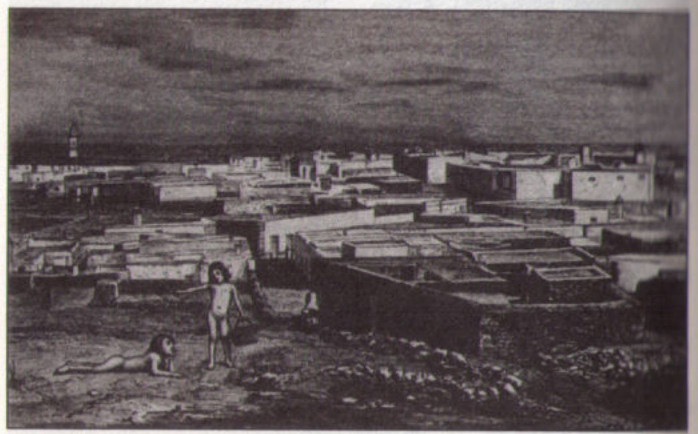
وأمام ردِّه ذاك هذا، لم يبقَ لي سوى الانْسحابِ، وهو ما قُمتُ به.

كان ذلك إحباطا كبيرا. لقد أُغلِقَ في وجهي، فجأةً، البابُ الذي كنتُ أتوقَّع الدخول منهُ، في اللَّحظةِ، بالضَّبط، التي وصلتُ فيها إلى العَتبَةِ. ذهبتُ، على الفور إلى مكتب المعلومات وقادني الدكتور **شيل** (Chil) إلى الدائرة، وقدَّمني إلى كلِّ رجال العلمِ في الأرخبيلِ. بدَا الجميعُ مُهتمّا لأمري،

وأستُقبلتُ بهذه الحفاوةِ التي يَنْمازُ بها ساكنة الكنَاري دون غيْرِهم؛ لكنَّ أحداً منهم لم يُشجِّعْني. كانَت المعلومَاتُ التي جمعتُها غامِضَةً. ونَصحُوني، في نهَايةِ المَطافِ، بأنْ ألتقِيَ بالصّيادين الذينَ يتردَّدون على السّاحل للحديثِ إليهم.

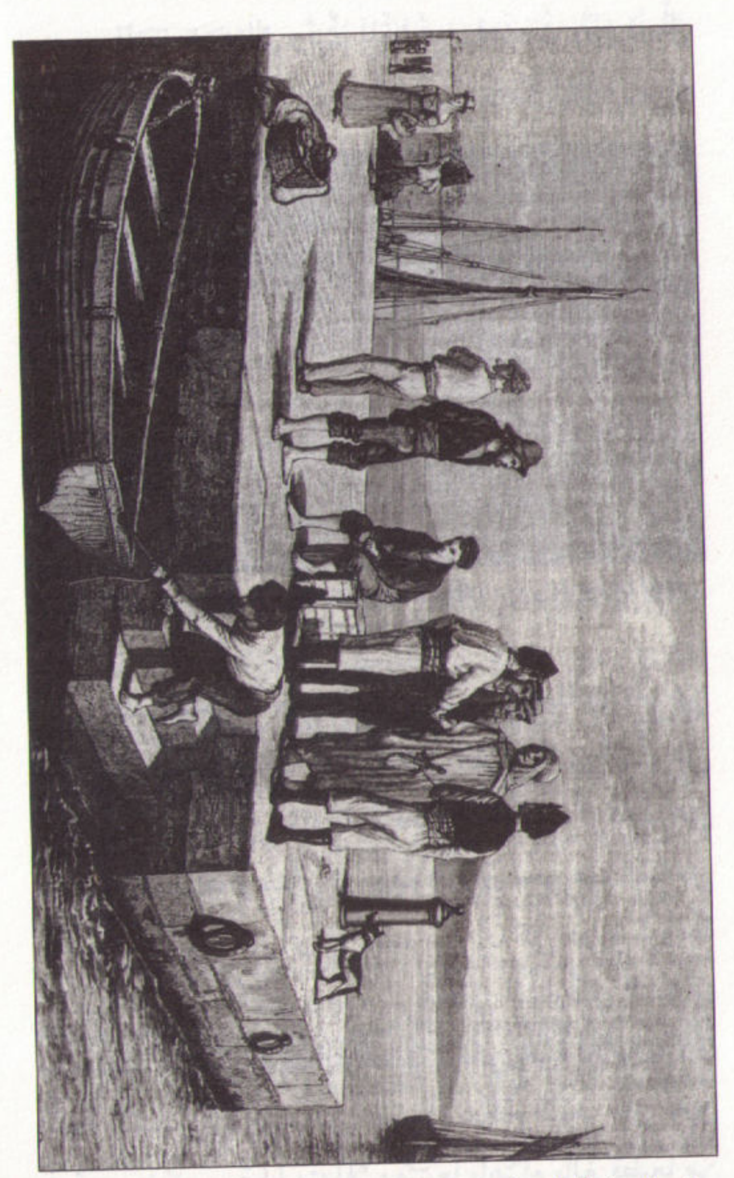
في مساء اليوم نفسِه ركبتُ السّفينةَ في اتِّجاه جزيرة **لانزروطي** (Lanzarote). كانت المسافَةُ الفاصلةُ بين **لاس بالماس** وهذه الجزيرة اثني عشرة ساعة من الإبحار. قضيتُ الليلة متجوِّلا حالماً على جسر السفينة. كانت ليلةً مظلمةً، والسفينة تمخُرُ عُباب البحر، تاركة وراءها أثرا فوسفوريا متألِّقا يرْتَسمُ مثل وِشَاحٍ متموِّج على سطح البحرِ المُظلم الهادئ. وفي لحْظةٍ من اللّحظَاتِ أدركْتُ أنَّ اتِّخاذَ قرارٍ حاسمٍ كان مسألة ضروريةً. كان على نفْسِي التي بلغَتْ مِنْ هيَجانِها كُلَّ مبلغ، بسببِ الخيارات المتعدِّدة المُتاحَة أمامي، أن تَستَعيدَ هُدوءَها، وبُرودَتَها بقرارٍ لا رِجعةَ فيه. تأمّلتُ في جميع الخيارات والخواطر التي جَالت في نفسي، وانتابتني الحِيرةُ لمدَّة ليست باليسيرة، بل أحسستُ بدُوار مثل إنسان خارَت قواهُ لحظَة عبور لُجٍّ عميق .. لكن، وفي لحظة خاطفَة استعَدْتُ كامل قُوّتي . واتّخذت قراراً نهائياً بالنُّزولِ في أيِّ مكان على السّاحل. صحيحٌ أنني كنتُ آملُ الوُصولَ إلى جُزر الكناري عبر بابٍ مفتوحٍ، لكن مادام أنَّ هذا الباب سُدَّ في

وجهي، فلم يعد هناك وقتٌ للتّراجُع. فعزَمتُ على تسلُّق الأسوارِ.



أريسيف لانزروت ، رسم لـ ج. جيراردييت (J.Girardet) انطلاقا من صورة فوتوغرافية أذاعها م. أليو (M.Alluaud)

عند الفجر، أحسست كأن صخرة ثقيلة تنزاحُ عن صدْرِي، بعد أن هدأَت نفسي بفضل القرار الذي أتيتُ على اتخاذه ، وتخلُّصي مِن مقاومَة الأفكار المتَناقضةِ. توكّأتُ على متاريس السّفينة، وعيناي إلى جِهة الشّرق نحو هذا السّاحل الإفريقي الذي لم يترآى لي بعد، غير أنّ كلّ دورةٍ لمِروَحة السّفينة تُدنيني منهُ كُلَّ يوم، وشرعَ عقلي الشّاردُ في التّنبؤ بما سيَحدُث. من المؤكّد أنّ التوقّعات لم تكن مخيِّبةً للآمال، لأنّ أشعة الشمس الأولى، التي غمَرتْ سطح البحرِ على حين غرة، وجدتْني سعيداً متهلّلاً ومتتبِّعا باهتمام بالغ قطيعا من



ركوب البحر في اتجاه الصحراء، رسم جيراردیت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب.

الخنازير البحر أشبه بسمنْدَل الماءُ يغوص ويعيد الكَرّة حول موكب السفينة.

سُرعانَ ما بدَت لي جزيرة **لانزروطي** بسواحلها المقفرة، الجدْباء تُسيلُ لعاب(avant-gout) كل متشوِّفٍ مثلي للصحراء. لا أثر لشجَرةٍ على سَطْحها المُقْفِر. في الأفق ثمّةَ هِضابٌ مِن البَزالْتْ يحيط بها «جبَلُ النّار» تكشفُ عن الأصول البلوتونية للجزيرةِ، فيها كانَتْ منازلُ **قرية سان - بارتولوميو**، المطلية بالكِلْس المخْشوشَنِ، والقابعة في زاوية من الجزيرة تؤثث رتابَةَ المنظرِ الطّبيعي. وما لبثنا أن وَصلنا إلى **أريسيف** (Arécife) ميناء الجزيرة وحاضِرتُها. **أريسيف** عبارةٌ عن بَلْدَة عددُ سُكّانها من ثلاثة إلى أربعة آلاف نسمة. كانت أزقتُّها المبلَّطَة، الواسِعَة المصمَّمة بروعةٍ، مُحاطة بدُورٍ منخفضة ذات شُرفات وأبواب خضراء. يُخيَّل للمَرءِ، وهو يجوبُ أزقّتها، أنّه يزور مقبرةً كبيرةً أو مدينة أمواتٍ. كان لأقدامِنا صدى كَما لو أننا تحت قُبّة من القِببِ. وبالكاد كنّا نسمعُ على وقْعِ أقدامِنا، شيئا فشيئا عن بعد، صفيحَة بَابٍ ينكشفُ موهِماً خلْف النّوافذِ المُغلقة بوجُودِ مَخلوقَاتٍ بشريّة.

نزلتُ في الفندق الوحيد في الجزيرة في ما أظنّ. فُندقٌ إيطالي يُشرفُ عليه شخص يُدعى **فوماكالو**. كنت التقيتُ بالفندقيِّ في الميناء، وأخبرني أنني الأجنبيّ الوحيد بالجزيرة،

وأنّ النّاس لم يعهَدوا، سنين عديدة، رُؤيةَ فرنسيينَ برُبوعِها. كما سألني وهو يقدِّم لي خدماته عن السّبب الذي من أجلِه جئتُ إليها. وبما أنني كنتُ بحاجة إلى معلومات كثيرة فإنّي لم أُخْفِ عنه هدَفي. التفتَ إليَّ على الفور وعلاماتُ الدّهشة بادية عليه، حتى يتأكد أنني جادٌّ لا أمزح . لم يترك لهُ كلامي الموزون أيّ مجال للشكِّ. واصلْنا سيْرنا في صمْتٍ. وقبل أن نصِلَ إلى باب فندق **فوندا إيطاليانا** رأيتهُ يهُزُّ كتفيه مرتين أو ثلاثة وكأنّه يقول لي: « ياللك من رجل غريب الأطوار !» كنا نأكل في هذا الفندق كأسرةٍ واحدةٍ، ونجتَمعُ عند الوَجَبات. وحول المائدَة كانَ بجانب مديرة الفُنْدق والأطفال ثلاثةُ نُزَلَاء : القَاضِي، ومُوثّق، وعقيدُ الجيْشِ الإقليمِي. وحتى يتلذّذَ الفُندقيُّ باندهاش الجميعِ قدَّمَني بطريقةٍ غريبةٍ، وأخبرَهُم أنني أريد النّزول بالساحل، قاصداً البيظان. التفتَ الجميع نحوي باندهاش غريبٍ. ولكنّهم استأنفوا أكلهم مُبتسمين، والشك بادٍ على وجوههم. ولإقناعهم كان ينبغي لـ **دون فيليكس** (Don Felix) (وهو اسم الفُندُقي) أن يردِّد بنبرةٍ جادّة كلمات التقديم. وعلى الفور تزاحموا ليفسَحُوا لي مكانا للجلوس. كانت المائدةُ في بلدٍ للصّيدِ بامتياز، مملوءة بأطباق من السمك. دُفِعَتِ الأطباقُ، وفُسِح لي مكانٌ شرفيٌّ. قال القاضِي أنّني شجاعٌ، وأردَف العقيدُ، مضيفاً، أنّه شارَكَ في حملةٍ على سبتة ضدّ المغاربة، وأنني سوف أقْطَّعُ على أيديهم

إرباً إرباً. وقال الموثِق أنّه نَشَر لتوّه صفحَات تُبرهنُ على أنّ **كريستوف كولومب** (Christophe Colomb) كان قد رَسا، خلال رحلتِه الاستكشَافيـة، علَـى **سـان – طومـاس** (San – Thomas) وأنني كنتُ، أكثر منه، أحد خدّام الإنسانية، ثُمّ طرَقُوا الكؤوس بعضها ببعض ترحيباً بمقْدَمِي .

شرعتُ في الحال، رفقة المرشِدِ السّياحي للفُندق، في البَحثِ عن بحّارة يقبلون بإنزالي بالسّاحِل. كان الشّخص الأنسب لي هو الدكتور **لورنزو كبريرا** (Lorenzo Cabrera)، الذي أهّلَتْه صفتُه مندوباً لوزارة الصِّحة لأن يكون على اتّصال دائم مع الصيّادين. واتّفَق أنّي كنتُ أحملُ إليه رسالة، فمضيتُ للقائه. كان الدكتور **كبريرا** شخصيةً ضخْمَ الهيئة، بوجْهٍ وَدودٍ، لكنّه كان حسِيرَ النّظر جدا. عندما شرحتُ له الغرض من زيارتي ارتَمي وراءَ على كُرسيِّه، ومسَحَ نظّارته، ثُمّ سَعَلَ، ووضَعَ يديْهِ العريضتينِ على بَطنِه ،وبادرني قائلا:

– لقد وُلدْتُ هنا في هذه الجزيرة، وقضيتُ فيها مُعظم أيّامَ عُمري. من وسط الجزيرة نرى في جوّ صحو السّاحلَ الإفريقي. والحقيقةُ أنّنا مُنذ صِبانا نَشأْنا على الخوف من هذا السّاحل. وكلّ الصيادين الذين يتردّدون على هذه الرّبوع يعُودُون دائماً وفي جُعبتهم حِكايات مُروّعة. عندما يقتربُ المرءُ من السّواحل يَرى كائنات بوُجوهٍ بشريةٍ، وشَعَر طويلٍ،

يرتَدُونَ جلوداً، ويحمِلون خناجرَ وبنادِق، يجلسُونَ على الصّخرِ يترصّدون كُلّ مَسيحي. وكثيرا ما تعودُ مراكبُ الصّيد بصيّاد أو صيّادين، وعندَما نسألهم عن زُملائهم يجيبُون بنبرة حزينَـــة قتلهُـم البيظان، قتلهُـــم البيظـان «Los Moros todavia los Moros». ولقد أصبحَ اسم المورو هذا يثيرُ الرُّعب. لهذه الأسباب أنصحُك ألّا تذهبَ لزيارة البيظان.

– سيدي لتخوُّفاتك ما يبرِّرُها، لكنّني أعرف العربَ معرفةً جيّدة، وأعرف مشاعِرهم، وليستْ لديّ الأسباب ذاتها حتى أشاطرك تخوُّفاتك. وصدِّقني ، سيدي ، إنهم قوم لا يقتُلون أبدا رجُلا يتقدَّم إليهم أخا في الدين. ومهما تكُن وحشيتُهم فإنّهم يحترمون مُسلماً غريبا عنهُم. إن قراري لا رِجعَة فيه، وأريدُ أن أشَاطرك اقتِناعي بالنّهاية السّعيدة لمقْصِدي .

لم يكن الدكتور كبريرا متعنّتاً. وبدا أنه أذعن إلى رأيي أخيراً. هكذا شرعنا في الحديث عن أداة النّقلِ. كانت جميعُ مراكبِ الصّيد خارج الميناء، لكن كان على اثنتيْنِ منها الدخول إلى الميناء خلال الأسبوع. وعند دخولها سَيُخبِر الدكتور كبريرا رؤساءَها، ويُعرِّفني بهم لمناقشة مسألة

العبور. افترَقْنا مُبتهجيْن سَعيديْن بلقائنا. شكرتُه من جانبي على خدمَاته، وأكّد لي من جانبِه الاهتمامَ الذي يوليهِ لشخصي منذ أوّل لقائنا.

وبالفعل، دَخلَتْ السفينة الشراعية كارميتا إلى الميناء. وبمجرّد رُسوِّها جمَعنِي لقاءٌ بربّانها والدكتور كبريرا. أطلعْتُ الربّان عن مشروعِ رِحلتي، ومسَارها لتحقيق هدفي. تركني أتكلّم دون أن يُقاطعني، ووحده تقطيبهُ لحاجبَيْهِ، كان يَنمُّ عن الأهمّيةِ التي خصّ بها حديثي. وعندما أنهيتُ كلامي رَبَّتَ على كتفِي قائلا بلهجة جازمة:

– هذا مستحيل

وعند إشارتي بالنفي بادرني قائلا:

– مِن فضلِك لا تُقاطعني. الحقيقة أنّك أثرتَ اهتمامي مُذ رأيتُك؛ أنت شابٌّ ومواطن فرنسي. والدي كان جنديا قديماً من جنود الإمبراطورية. لا أريد أن ألومَ نفسي على ارتكاب جريمة. إذا نزلتَ على السّاحل سوف يَأسَرونك ويُقطِّعونك إرباً إرباً، ومن يدري ربما لقيتَ حتْفك في الحال.

– قاطعتُه :

– لكن...

– من فضلك

ربَّتَ بيده العريضةِ على كتفي، وهو يقول:

– مهما أعطيتني من مال فلا تُتعِب نفسك؛ لن أقودَكَ إلى هناك. وأمام إصراره أدركتُ أنه لا جدوى من الإلحاح عليهِ. ودون أن أخفي عنه حركة امتعاض شددتُ على يده الممدودة، فيما كان هو يستأذنني بالانصراف.

خارت قواي وتحطّمت آمالي. ماذا ! هذا الساحل الذي أكاد أراه والذي امتدت إليه أشواقي كلها سوف ألاقي أمامه من العوائق ما تنوء عن حمله الجبال! ثم هل أظلُّ هكذا على الشاطئ عاجزاً عن عبور قطعةٍ من البَحر ! وهل أتراجع بعد أن كنتُ قاب قوسين أو أدنى من بُلوغ الهدف! تبّا، هل عليّ أن أقطع المحيط فوق خشبة عادية، سوف أفعل؛ فأنا واثق من نفسي، وفي يُمْنِ طالعي، وشيء في داخلي يهتفُ لي أنني سأفْلَح. لكن ما السّبيل لإقناع كلِّ هؤلاء المتشكّكين؟ إنّهم لا يُصدِّقونني فقط، بل يختلقُونَ لي الوَساوسَ للتّثبيطِ من عزيمَتي. هل أجدُ شخصا ينصِت لي من غير مصلحتِه الشّخصية؟ ليس من شكٍّ في أنّه يجدُر بي أن أجد الآن شخصاً لا يناقشني في شيء آخر سوى ثَمنِ العُبور... وبينما كنتُ أجوبُ أزقّة أريسيف غارقا في هذه الأفكار المؤرقة صادفتُ مُفاوضاً من أهلِ البلَد يمْتلكُ قارباً مخصّصاً للتّنزُّه. سألته ما إذا كان يريدُ استئجار قاربه، ويدلّني على صيادَيْن للوصول إلى الساحل. نظر إليَّ كما ينظر

الناس إلى مجنون. ثمّ استدركَ قائلا :

– بالطبع ! كما تشاء. كم تريدُ أن تدفع ؟

صحتُ فرَحاً؛ كانت فرحةً فاقت كل تَصوُّر. فقد وجدتُ الشّخص الذي كنت أبحث عنه. قفَلتُ راجعا، تعلو محياي ابتسامة، وأوصيتهُ بالبحث عن الصيادَين، وأننا سنتدبَّر أمر الثّمن في نهاية المطاف. عند المساء، وبينَما كنتُ أتهيّأ للنوم، سمعتُ طرْقا على باب الغُرفة ورأيتُ، في الوقتِ نفسِه، المندوب الصحي يدخُل محْتقِن الوجهِ، وهُو ينهَج بسببِ الرّكض. صاحَ وهو يستلقِي على أريكةٍ:

– هكذا إذن ! قل لي هل صحيح ما سمعتُ ؟

سألتُه مندهشا:

– ماذا؟

– تسألني ماذا ؟ لقد أخبروني أنك تنوي الذهاب في هذا القُويرب المتمايل في الميناء. لكن، هو ذا الحمق عينه. ألا تعلمُ أنه سوف ينقلب بك ما أن تهُبّ ريح عادية! أجبته:

– أشكُرك عزيزي على اهتمامك. لكني اتّخذتُ قرارا لا رجعة فيه بالنزول بالساحل الإفريقي مهما كلّفني الأمر. وقد أخبرتُك بقناعتي عندما زُرتُكَ أوّل مرة، وبالتالي فإنّي أنوي الذّهاب.

لم نستطع اليوم إقناع رئيس صاحب القورب بنقلي. ولأنني مغتاظ من هذا الرفض، ومن التّهديدات بالأخطار التي يُحدِّثونني عنها، فقد بلغ بي الأمر حدّا لم أستطع معه أن أرجئ قراري بالذهاب منذ أن وصلتُ إلى جزر الكناري، وأصبحتُ أفضِّل المخاطر نفسها على هذا الوضع الذي يُلقي بي في متاهات الشك التي لا تُحتَمل.

ردَّ صاحبي وعلامات القلق بادية عليه:

– لكن يا إلهي ! عليك بالصبر يوما أو يومين. يُحتمل أن تصل غدا سفينة **أديلايدا**، وأعدك بأن أبذُل ما في وسعي لإقناع ربّانها بنقلك. بعد كلامه هذا وعدني بمزيد من الصبر، وافترقنا وكلانا مطمئن النفس.

في مساء اليوم التالي وصلتْ سفينة **أديلايدا**. وجاء ربّانُها المدْعوّ **دون كاميليو** (Don Camilio) صُحْبَة مساعدِه لزيارتي. من المؤكَّد أنّ المندوب الصِّحي حدّثَهُ عن مشروع رحلتي، لأنّه بادرني باستعداده لِخدمتي وأردَف قائلا :

– سأكون مُلزَما بالذّهاب خلال أيام؛ للصّيد في ساحل **وادي الذهب** و **رأس بلونكو**: ومادامت تلك وِجهَتَك سأقدِّم سفري بيومين أو ثلاثة .

وبعد عدد من الأسئلة التي أجاب عنها بتفصيل توادَعْنا على أملِ اللّقاء في اليوم التالي. وفي الغد عاد لرؤيتي

مصحوبا دائما بمساعِده، وهو صياد شابّ بوجه وديع وفطن وبادرني قائلا:

– بالنسبة لثمَن النّقل فقد اتّفقنا عليه أنا والمندوب الصحي الذي أخبرني أنّك كلّفتهُ بالتّفاوض حوله. ينبغي الآن معرفة أين تريد النُّزول. قيل لي أنك تريد أن تتنكر في صفة مسلم بين البيظان. لا أتفق معك في هذا بالُمطلق. ومادمت تعتقد أنك ستنجحُ. فليكُن. وكلُّ ما أستطيعُ فِعلَهُ أن أقودَكَ إلى هناك. وإذا شئتَ سننزلُ في **رأس بوجدور**، وهو موضع مناسبٌ، وكثيرا ما يَتردّدُ عليه البيظان. لكن قبل الذهاب فكِّر جيدا، لا ينبغي أن يتملَّككَ الخوف في اللحظات الأخيرةِ، وأنت ترى إلى هؤلاء الوحوش بخَناجِرهم، ورؤُوسِهم التي تُشبه رؤوس حيوانات مُفترسَة.

مددتُ له يدي مبتسماً، وقلتُ:

– هوّن عليك، ولا تخفْ، وإن حَدَث أن خِفتُ فلن أثيرَ، على كل حال، فُضولَهم. وكم سأكون حزيناً إذا انقلبتِ الأمور إلى الأسوأ هناك. ثم خرج الصيادون ليخبرونني أننا سنُسافر بعد غد مساءً.

وعلى الفور شرعتُ في أخذ أُهبَتِي. وكتبتُ رسالة إلى القُنصُل الفرنسي في جُزر الكناري لأخْبِره بسفري. ثم أعطيتُه تعليمات خاصّة في حالة ما إذا رُفِع إليه خبر اعتقالي،

أو انتهت رحلتي نهايةً مشؤومةً. استأذنتُه ووعدتهُ بأن أُطلِعه على أخباري بمجرد وصولي إلى المغرب، أي عند نهاية رحلتي. كما كتبتُ إلى وزير الشؤون الخارجية وكذا إلى م. م فيرو (MM . Féraud) وزير فرنسا في **طنجة** وإلى **لاكوست** (Lacoste)القنصل الفرنسي بـ**موكادور**، ملتمساً منهم أن يستغلّوا نفوذهم، ومكانتهم عند الحكومة المغربية في حالة ما إذا اعترَضتْني صُعوبات خلال رحلتي. وبعد أن كتبتُ رسالة أودِّع فيها والدي وأصدقائي أصبحَ سفري شُغلي الشّاغل... وسرعان ما انتهيتُ من أَخذِ أُهبَتي: ولأنني أردتُ السفر إلى المغرب في صورة تاجر فقد طلبتُ صنع صندوقين من الخَشب بمقبَضيْن من الحِبال وضعتُ فيهما بضائع، يُفترَضُ أن أبيعهَا هناك. تنكّرتُ في صورة مغربي، وأبحرتُ في الأيّام الأولى من شهر يناير يوم الاثنين بعد الزوال حوالي الساعة الخامسة مَرفُوقاً ببعض السكان والدكتور **كبريرا** وبالعناية التي بمُوجبها سأحصُل على رُخصَة مغادَرةِ السّفينة وهي ترسو على الساحل الإفريقي.

لحظات بعد ذلكَ أقْلَعت السفينَةُ الشراعية، وفجأة هبّت ريحٌ مُؤاتية، وامتلأت الأشرعة بالهواء، وانطلقنا بسرعة في اتجاه **رأس بوجدور**. وقفتُ في مؤخّرة السفينة أنظرُ إلى جزيرة **لانزروطي** وهي تتضاءل، في الأفق، شيئاً

فشيئاً. وعندما أوشكت صورة **أريسيف** على الاختفاء في الشّفقِ لوّحْتُ بأهدَاب برنوسي للمرّة الأخيرة، وقلت وداعا للحضارَة.

-2-

في الطريق نحو إفريقيا - سفينة أديلايدا - نزولي من السفينة - بين المحيط والصحراء - لقائي بأربعة بيظان - أسري، وتعرضي للنهب وسوء المعاملة واسترقاقي - ليلتي الأولى في الصحراء .

لم تكُف الرّياح عن الهبوب طوال اللّيل. وكانت السفينة بأشرعتها في الهواء أشبه ما تكون ببطرس[10] ضخم، تمْخُر عُباب البحر بسرعة على سطح البحر الساكن، وكأنها تكاد تلامسه لمسا خفيفا. كان الليل ناعما هادئا، والنسيم يصِلُ مُحمّلا بالعِطر الذي يفوح من بساتينِ **أوروطافا ولاس بالماس**. وقد بلغ من هدوء نفسي حدّا جعلني، تحت وطأة تأثُّري بمثل هذا المكان، أتمدَّدُ على جِسر السفينة، مُتلففاً في بُرنُسي، أرعى النُّجوم المرَصّعَة في السماء في ليلة مُقمِرة عزّ نظيرها.

أبْحَرنا في اليوم التالي دون توقّف باتجاه الساحل. قال الصيادون أنّنا سنصل **رأس بوجدور** في مساء اليوم نفسه ما لم تتغيّر الرياح.

(10) طائر بحري عملاق. (المترجم)

كانت **أديلايْدا** سفينة صغيرة تزن 35 طنا، شبيهة بكل سُفن الصيد الموجودة في **جزر الكناري**. كانت سفينة طويلةً، ضيّقةً، سهلَة القيادَة، وفيها مخزنٌ للأسماك، وقمرة مُقسّمَة قسمين في الخلف، حيث كان الصيّادون يتكدّسون متشابكين فوقَ أمتعتهم للنَّوم. وعندما ينظر المرء للمرة الأولى إلى إحدى تلك القمريات، على بُعدِ أمتار، يتعجّبُ متسائلا كيف أمكنَ لخمسة أو عشرين رجلا أن يجدوا فيها مُتَّسعا يكفيهم للنومِ. لكن ما أن نظرنا إليهم متراصّين حتى دُهِشْنَا. كانوا يتشابكون مع بعضهم بعضا حتى لا يتركوا مجالا لأصغر فُسحة بينهم. وإذا نظرَ المرء خلال اللّيل إلى إحدى تلك القمريات يرى تشابك الأذرع والأرجُل والرؤوس والأمتعة. كان ثلاثة وثلاثون صيادا ينامون على متن **أديلايدا** في قُمْريتين، مساحة كل منهما ثلاثة أمتار مربعة. ووحدهُ الربّان هُيِّئَ له مرقدٌ في جانب خاص فوق باقي الصيادين.

وبالفعل وصلنا في المساء بمحاذاة **رأس بوجدور**. لكن سرعان ما أرخى الليل سدوله، فصار مظلما أكثر فأكثر، وبدا لنا أنه من المستحيل النزول بالساحل في المساء نفسه. وقال الربان:

– سنسير الليل كلّه نصارعُ الرياح، وغدا نرسو على السّاحل.

هكذا قضينا قسما من الليل في الحديث. تنازل لي **دون كامليون** عن مرقده. وفي القُمْرة المضاءة بمسرجة كان نحو إثني عشر صيادا ينامون متشابكين تحت مرقدي، ويحدّثونني عن شراسَة البيظان، ووحشيتهم، كما لو كُتب عليّ أن أتخيّلَ أمام عيني شبحَ البربرية والوحشية. غير أنّ العادة تتكيّف مع كُلِّ المخاوفِ؛ فضلا عن أنّه رُوِيَت لي حكايات عديدة عن قُطّاع الطرق منذ أيام، إلى حدِّ أنني تمرّدتُ على كل الأحاسيس والعواطف.

قال لي أحدهم؛ بدا لي أنه ربّان سفينة قديمٌ:

– منذ أربعين سنة وأنا أصطاد في هذه المنطقة. أحياناً نزلتُ على الساحل. لكنني حرصت، أيُّما حرص، على ألّا تقع عليَّ عيون البيظان. لقد أصبح كثير من أصحابي أثرا بعد عين، ولم يعودوا إلى السفينة أبدا. ذات يوم رأيت مِنْ عَلَى السفينة صديقين لي وهما يُذبحان على الساحل عندما ذهبا يبحثان عن الماء العذب. ومرّة أخرى غُدِر بأحد أصدقائي، وقد تسلّق صخرة لينظر إلى سفينة شراعية في الأفق، فسُحِق عليها. أمّا عن الغرقى الناجين فإننا لا نسمع عن أخبارهم أبدا ...

وسألني:

–كم عمرك ؟ أجبتهُ:

– إثنان وعشرون عاما. قال ملتفتا إلى بقية الصيادين:

– يا إلهي إنّه صبي!. وقال وهو يخاطبني:

– فليَصْحبْكَ الرّبُّ ومريم العذراء يا بنيَّ!

ما أن لاح الفجر حتى تفحّصنا الساحل بعناية فائقة. هبّت الريح خلال الليل بقوة، ودفعتْ بالسفينة جهة الجنوب، بحيث وجدنا أنفسُنا عند أشعة الشمس الأولى على مسافة بعيدة جدا من **رأس بوجدور**. العودة إلى جهة الشّمال كان من سابع المستحيلات. فمَع وُجود رياح معاكسةٍ سنَضطَرُّ لقضاء يوميْنِ للوصول إلى الموضع الذي كنّا فيه مساء البارحة. هذا عن أنّ الصيادين أحرص الناس على وقتهم بدَل أن يُضيِّعوه في سباق لا جدوى منه مع الريح. كانوا في عجلةٍ من أمرهم للشّروع في الصيد ليتسنّى لهم العودة إلى **لانزروطي** مع أعيَاد الكرنفالِ، والحال أنني باعدتُ بينهم وبين طريقهم سلفا.

ما العمل ؟ ما مِنَ النّزول بدٌّ. لم يعد بإمكاني التّراجع . ينبغي النزول مهما كلَّف الأمر.

واصلنا مسيرنا بمحاذاة الساحل نترَّصد موضعا مناسبا للنزول. ما طمْأنَني أنّ المنطقة كانت تبدو مأهولة. ومن حين لآخر كانت قُطعان الجمال تتقدَّم نحو الجنوب ببطء تحت أشعة الشمس المتوَهِّجة، فيما كان الأفُق الكئيب،

الذي تحدُّه مرتفعات وحشية جرداء يَمتدُّ مُتماهياً مع كثبان الساحل. وخلال ساعة وصلنا إلى مرتفع. كانت الجِشافُ تنفكُّ عن الشاطئ لتغمُرَ البحر. أمكنَ للسفينة أن تقترَبَ من بعض الأجرافِ، وتمكن الصيادون لتوِّهِم من التَّعرُّف على **رأس كارني** Garnet Cap الذي يقع على نفس المَسافَة من **رأس بوجدور** ووادي الذهب. وعلى الفوْرِ أنزلنا الأشرعة، وأُنزل القارب في الماء، وبعد أن شددتُ على أيدي الصيادين كلهم، أخذتُ مكاني في مقعد القورَب صحبة مُساعديّ وأربعة بحارة. بعد لحظات وصلنا إلى سفح الأجراف. كانت الصخور ترتفع من فوقنا حوالي عشرة أمتار بشكل عمودي. استعان البحّاران والمساعد، وهم يحملون حبلا، بحُفَر الصّخور، وتسلّقوا الجدار الصلب من الكرانيت. ولما وصلوا إلى السّطح، وتفحّصوا المكان لم يروا أي كائن حيٍّ مدُّوا الحبل إلى القارب. وبمساعدة من الصيادَيْن اللذين كانا يحرسان القارب ربطتُ الكيسين فرُفعا على التوالي فوق الصخور. وعندما مُدّ الحبل للمرة الثالثة ربطتُه حول خاصري على شكل حزام سميك. بغتة رُفِعتُ عند إشارة معينة. وهكذا نزلت على ساحل الصحراء. وكي أتفادى كل حادث طارئ كان الصيادون يتمنّون لو حمَلْت معي سلّةً من المؤونة. بقيَتْ تلك السلة في القارب فرُفعت بنفس الطريقة. ولم يفكر أصحابي في تركي إلا بعد أن رتّبوا كُلّ شيء فوق

الصخور. وقبل مغادرتي أرادوا مُعانقتي. تأثرتُ بالغ التأثر، وأنا أبادلهم العناق. وأعطيتُ كلا منهم بقشيشا. وبعد أن تمنّوا لي كل خير، وأغرقوني بالدعوات، نزلوا إلى قاربهم الذي توجّه بسرعة في اتجاه السفينة.



صعودي من ساحل الصحراء، رسم جيراردیت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب.

أخيرا، ها أننذا على أرض إفريقيا، في قلْبِ صحراءٍ مُقفرةٍ، وحيدا أقف على أرضِ شعبٍ مُتوحّشٍ ومتعصّبٍ؛ مهجور على ساحل غير مِضياف، يُذبَح فيه النّصارى ذبْحا.

لم يكن شعوري الأول، وأنا أجد نفسي وحيدا فجأة على ساحل موحشٍ، شعورا بالخوف. إذ لم أكُن على وعيٍ بحجم المخاطر التي ستعترِضُني. كنتُ لا أزال شابا يافعا، وكنتُ أثِق في حسن طالعي.

ثمّة هاتفٌ يهتِف لي في أعماق نفسي أنّني لن أموت في رحلتي المغَامِرة هاته. وعلى أيّ حال؛ فقد كانت رَغبتي المتحمِّسة إلى اللّحظة التي سأكون فيها على هذا السّاحل أكثر إلحاحا مِن أنْ يتملّكني خوفٌ حقيقيٌّ. كنتُ، بالأحرى، أشعُر، بإحساسٍ غامضٍ من الغرابَة، تزيدُ من حدَّتِه الوحدةُ القاتلةُ، والمكان المتَوحّشُ الذي كنتُ فيه. جلستُ على الصّخور المشْرفةِ على البحْرِ، وأمام هذَينِ الامتِدادَيْنِ اللامَحْدودَين، اللذين يُدهشانِ، ويستأثران أكثر بقلْبِ الإنسان: المُحيطُ والصّحراءُ، مكثتُ للَحْظةٍ شارداً حالماً. كنتُ في إحدى هذه اللّحظات المَهيبَة التي تَسِمُ حياةَ إنسانٍ إمّا بالنّجاةِ أو الخُسران. ففي سُويعات هاهو مصيري تبدّل؛ ففي الأمس كان عبارة عن حياة هادئة ومستقرة، ووديعة، وحضَارةٍ، بإغراءاتها المختلفة، وهاهو اليوم عبارة عن مهالك ومخاطر عليّ أنْ أواجِهَها. إنها البربرية بكل ما يصاحبها من آلام و فظائع. ولكَمْ حدثَ هذا التّحوُّل فجأةً، إلى حدٍّ أن شعوري لم يكن ، كما قلت آنفا، وأنا وحيد فوق هذه الصخور

المشرفة على البحر، شعورا بالخوف، وإنّما بالدَّهشَة. لم يكن بإمكاني تحليلُ مشَاعري. ومع ذلك كنتُ أشعرُ بإحساس حادٍّ وهادئٍ في الوقت نفسه؛ شعورٌ أشبه بهذه النّشوة الرائعة، والمُؤلمة في الوقت نفسه، التي يَشعُرُ بها المرءُ عند أكبر الهزات النفسية تأثُّرا.

والآن، هاهي السفينة بأشرعتها المرفوعة التي تحملها الريح قد ولّتْ مُدبرةً أمامي. تأملتُها للَحظاتٍ. أحسستُ بعيون الصّيادين تتوجَّه نحو الصَّخرةِ التي أُشرف منها. لا يزال هناك وقت للتّراجع. يكفي أن أقوم بإشارة، وسيبادر هؤلاء الصيادون الشجعان إلى إنقاذي مما يرَوْنَه موتا لا مفرّ منه. لكن ذلك لم يخطر على بالي، وما زالتْ عيوني الحالمَة تتفرّس هذِه النقطة البيْضَاء التي تكادُ تتلاشى في الأفق. وما هي إلا دقائق أخرى حتّى يتوَارى آخر علامَات الحَضارة عن عينيّ للأبد.

ألقيتُ نظرة من حولي بعد أن تخلّصتُ فجأة من هذه الأفكار. نعم، إنّها الصحراءُ حقا في جَدْبها الكامل. وعلى سطحٍ صَوّانٍ[11] ومغطّى بأحجار، كانت بَعْضُ النباتات البحرية الهزيلة تجرُّ، هنا وهناك، غصونَها التي لم يكتمل

(11) ضربٌ من الحجارة فيه صلابة يتطاير منه شرر عند قدحه بالزناد والقِطعة منه صَوّانَة. (المترجم).

نموّها بعد، فيما كان الأفق يتوارى نحو الشّرق وسط تِلال لا متناهية. وباتِّجاه الشّمال كان قطيعٌ من الإبلِ يتقدّم شيئا فشيئا. قرّرتُ أن أذهب للقاء البيظان.

أخفيتُ كيسي وسلّة المؤونَة وراء صخرة كبيرة، ثمّ تخلصّتُ، بعد ذلك، من عِمامتي، وتوجّهتُ نحو الشمال بعزمٍ وثباتٍ، بعد أن وضعتُ مسدَّسي في مِعطف بُرنُسي، وخَنجرا في مِعصَمي.

في طريقي ما لبثتُّ أن صادفتُ قطيعا من الجمال. كان يقودها عبد صغير للرّعاة. نظرتُ من حولي في كل الجهات لأتأكّد مما إذا كان يوجد بيظان من حولي. ولم تصادف عيناي غير هذا العبد الصغير العاري كما ولدته أمه. طفِق العبدُ ينظر إلي بعينيه الشّاخِصَتين المذعورتين، ثمّ اتجهتُ نحوه وناديتُه بالعربيّة، مشيرا إلى رغبتي في الحديث إليه. وأغلبُ الظنِّ أنّه لم ير شخصاً في مثل هيئتِي، لأنّني ما أن تظاهرت بالتّوجُّه نحوه حتى ولّى هاربا، مُطلقا صيحات ذُعرٍ متتالية. اخترقتُ قطيع الجمال الذي كفّ عن الأكل، وشرع ينظر إليّ دهِشاً، حتى أنّ بَعْضهُ وَلّـى جَفِلاً عند اقتِرابي منهُ.

واصلتُ مسيري، وبعد ساعتين صادفتُ قطيعا آخر من الإبلِ، يحرسها عبيد. ومرة أخرى لم أفلح في الحديث إليهم، فبمجرد ما ناديتُهم حتى أطلقوا سيقانهم للريح .

وحينها وجدتُ تفسيرا لما حدَثَ : ذلك أن الرُّعب الذي أحدثْتُه، بعد مروري عليهم، و لم أفهمه للتو، كان سببُهُ وجْهِي، ولا سيما ملابسي البيضاء. فسكان الصحراء لا يلبسون سوى الألبسة الداكنة بفعل قلة المياه.



قطيع من الإبل، رسم جيراردييت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب

أخيرا، ما إن أوشَكْتُ على السقوط كي أسترجع أنفاسي، بعد سير طويل، محترقا بأشعّة الشّمس، ميّتا من العطش، ومُنهاراً من التعبِ، حتى رأيتُ، من بعيد، أربعة بيظان. قوّت رؤيتي لهم من عزيمتي، وكنت في عجلة من أمري للقائهم. كان اثنان منهما شابّين، والآخران كهْلين. تقدّموا نحوي وهم يلغَطُون بقوّة. أثارَ ظُهوري بينَهم فضولهم بقوّة. كانوا يلبسون جلود الحيوانات، وشبه عراة، بشَعَر كثيفٍ يتدلّى على أكتافهم، يحمِل كل واحد منهم خَنجراً على جنبه، وبندقية في يدهِ الأخرى.

وعندما لم تعد تفصل بيننا سوى أمتار قليلة؛ توقّفوا كلهم. تقدّمت نحو الذي كان يبدو لي الأكبر بينَهم سِنّا. مددتُ له يدي مُخاطبا إيّاه على طريقة العرب «السَّلامُ عليكُم». لم يمُدّ لي يدَه، وإنما تراجع إلى الخلف مذعورا، كما لو وجدَ نفسَهُ أمام حيوان مُتوحِّش. وتناول سلاحَه بخفّة، وهو ينظر إلي نظْرةَ غِلٍّ وشر. وبرباطة جأش كررت سلامي واستخبرتُه عن زعيمهم، واسْمِه.

نظر إليَّ الأربعة ككِلابٍ على أُهْبةِ الانقضاض. وكنت أقرأ في عيونهم المتوحشة، واحدا تلو الآخر، مُختلف المشاعر التي تدغدغ نفوسهم: أولا؛ اندهاشهم وهم يستمعون إليّ، وتشكيكهم في شخصي، وقناعتهم بكون هيئتي نصرانية، وثانيا؛ رغبتُهم في نهْبي وقتْلي.

فجأةً، بادرني الذي توجّهت إليه بالسؤال:

– من تكون ؟

أجبته قائلا :

ـ أخي ، أنا عبدٌ من عبيد الله ، تاجرٌ جزائريٌّ شاءت الأقدار أن ترمي به على هذا الساحل.

حينها شاهد أصغرهم، الذي كان يتفرّسني بنظراته، السّبْحَة التي كنتُ أضعُها على عنقي، وانتزعها بقوة، وشرع

يتفحَّصها بين يديه. ثمَّ بحركة سريعــة، ودون أن أتــمكن من منعه، نزعها وفر هاربا وهو يقول :

– يا لها من سبحة رائعة !دعْنِي أراها .

في حين كان الآخر قد لاحظ نتوء المسدس في الجيب الخلفي لبرنسي فأمسك به بقوة، وأخرج المسدّس منه، وتفحَّصه بغرابة، وسألنِي عن كيفية استعماله.

سارعتُ وأنا جدُّ مستاءٍ من هذه الوقاحَة لاستعادَته صائحا :

– على رِسْلك ! بالله عليك أجبني عما سألتك عنه أولا !

كان الرد سريعا. سرعان ما أحسست أنّ أحدا يُمسك بي من الخلف، ويصرَعُني أرضا. وضع أكبرُهم، الذي كان يُدْعى **محمد المهدي**، قدَمَه على عُنقي، فيما كان الباقون يُوثِقونَني. ولأنني لم أستطع التّنفس تحت هذا الضغط الوحشي والعنيف، وفي الوقتِ الذي كنتُ أبذل فيه جهودا ميؤوسَة لأتخلّص منه، قام أحد المعتَدينَ بسلٍّ سيفِه وضربني بمقبضه على فمي بِعنْف. كانت ضربةً قويةً كسَرت سِنّيْن من أسناني و أسالت دما كثيرا حَدَّ أنَّ الألمَ كادَ يُفقدُني الإحساس.



لحظة إمساكي بوتد الخيمة..." رسم جيراردیت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب

جُرِّدت من ثيابي على الفور. كنتُ أرتدي سروالا جزائريا فضفاضاً مِنَ الصّوف مشدودا حول خصري. ولأنّهم وجدوا صعوبة في نزْعه عني عمَدوا إلى تمزيقه بخناجرهم. كنت قد أمرتُ أن يُصنع لي بـ **لانزروطي** حزامٌ من الجلد كي أضع فيه مالي ووضعتُه تحت ثيابي لاصقا بالجلد. وبما أنّهم نزعوا عني جميع ملابسي فقد لَمحوا الحزام، وبعد أن مزّقوا القميص بدوره مرَّر أحدُهم صفيحةَ الخَنْجَر بيْنَ الجلد والحزام ومخافة أن يؤذيني مزقه تحت الضغط. حينها مرَّت امرأة من البيظان رُفقَة ابنيها الصغيرين متّجهة نحو الخيمة المجاورة، ولما رأت المال مبعثرا فوق الأرض والبيظان يجمَعونه بشَرهٍ انضمّت إليهم، فقام نزاع بين المعتَدين عليَّ وبين القادمة المُداهِمَة التي شرَعت في الصُّراخ بقُوّة. لفَت ذلك انتباه زوْجِها ، وهو شخْصٌ يدعى **إبراهيم ولد محمد**. وعندما انتهت الغزوة، ولم يعد هناك شيءٌ صالح للسّلب شرعوا ينظرون إليّ مُمدَّداً كجثة هامدة على الأرض. كان البيظان الذين قاموا بمهاجمتي أولا مع فكرة رميي في البحر، أمّا إبراهيم فقد ارتأى، على العكس من ذلك، أن يأخذني أسيرا. كان ثمة نقاش آخر أكثر جدية من النقاش الأول، لأن البيظان المعتدين كانوا يرغبُون في قتل الضَّحية، معلّلينَ رغبتهم بأنّه في حالة اقتيادي إلى المخيم فسوف أُسأل عن مبلغ المال الذي كان بصحبتي، وسيطالبون

باقتسامه مع كل أعضاء القبيلةِ. لن يَعْلَم أحد كم سُلِبَ منّي في حال قتلي. ولِحُسْنِ الحظ، وبفضل ما كان يتمتّع به إبراهيم من نفوذ، فقد أنقذَنِي من قبضة مرافقيه، وقادني إلى خيمته القريبة جدا من المكان. وبما أنني كنت عاريا تماما فقد ردُّوا عليّ قميصي وسروالي الممَزّق.

كانت خيام البدو، المنسوجة من جلد الجمال، بلونها الغامق، وأبوابها المنخفضة جدا، تتَماهَى مع الأرض، ولا يمكن تمييز بعضها عن الآخر إلا من مسافة قريبة جدا. دخلتُ إحداها حَانِيَ الرّأس. ولأنني كنت منهداً بسبب الألم والإعياء الذي بلغ مني كل مبلغ، فقد تمدَّدت على الحصير التي تُغطِّي الأرض.

قلتُ متوسِّلا على الفور:

- الماء.

كنت ظمئانا، وكأن فمي يشتعل نارا.

نادى إبراهيم **العزيزة** قائلا:

- **العزيزة** ، ناولي النّصراني ماء كي يشرب.

ومن داخل الخيمة خرجتْ طفلةٌ في ربيعها الثاني عشر، شبه عارية، تحمل في يدها إناء من خشب ممتلئا بماءٍ مالحٍ كدِر. أدْنَت الإناءَ مِن شفَتيّ، وشربتُ بنهم كبير... في أثناء ذلك

انتَشرَ خبَرَ وصول نَصرانيٍّ إلى المخيَّم، ومن حين لآخر يأتي أحدُ البيظان إلى باب الخيمة حاملا بندقيتَه في يده، ثم يسلِّمُ على البيظان الحاضرين ويعانقُهم ويسمِّيهم بـ «الإخوَةِ»، ثمَّ يجْلَس إلى جانبهم بحيث يشكِّلُون حلقةً كنت أتوسّطُها. حينها بدأَتْ سلسلة من الأسئلةِ حول بلدي وأصْلي.

- مَنْ أنتَ ؟

- أنا مسلم من الجزائر.

- لكن المسلم لا يأتي من جهة البحر، وحدَهُم النّصارى والكفار هُمْ مَن يركَبُون البحر.

- أنا عبد من عبيد الله، وهو خير العالِمين، وأسير وِفْقَ مشيئة الله.

- اشهَدْ بأن لا إله إلا الله، وأنّ محمدا رسول الله.

ردّدت الشهادة، وعند كل جواب أجيب به، كان البيظان يتهامسون في أذن بعضهم الآخر. بعْضُهُم منَ الأشياخ تجرَّأ على القول بخَجل أنِّي قد أكون بالفعل مسلما. أما أكثَرهم فأكّد أنّني نصرانيٌّ، دون شك، ما دُمت قد أتيت من جهة البحر. وأثناء ذلك شاهد الصِّبية، الذين كانوا يحومون من حولي وينظرون إلى أشلاء ملابسي، أزرار سراويلي. كان ذلك

شيئا جديدا بالنسبة لهم. ظنّت امرأتان أو ثلاثة، ممَّن حضَرْنَ استجوابي، تلك الأزرار موادّ للزّينة، وسرعان ما انتزعْنَها من السراويل ليُعلِّقنَها على شَعَرهنّ.

فجأة اكتَسح ثلاثةُ فتيان بملامحَ وحشيّة الخَيْمَة صاخِبينَ هائِجينَ وهم يحتجُّون على مُضيفي بشأن الغنيمة، ويطالبون بقسمَةٍ عادلةٍ بين جميع رجال المخيم. رفَضَ الذين سلبوني طلبهم بحجّة أنهم أول من قبض عليّ، بينما تمسّك القادمون الجدد بمطلبهم، وعندما اشتدّ الخلاف بينهم صاح الشبان الثّلاثة:

- إذن؛ مادمتم ترفضون اقتسام المال فسنأخذ النصراني ونذبحه. انقضُّوا علي بعنف شديد، وحاولوا سحبي على الأرض.

تمكّنتُ، وقد تملّكني اليأس، من الإمساك بوتِدٍ من أوتاد الخيمة، بينما تدخَّل مضيفي وأصحابهُ لإنقاذي من يد القادمين الجُدد. حينها تعالى الشجار بين القوم حتّى بلَغَ أشُدَّه، وخرج جميع البيظان من خيامهم ماعدا إبراهيم؛ لفضِّ النزاع. وفي محاولتين حاول الشبان الثّلاثة الإمساك بي، لكن مضيفي وقف عند باب الخيمة وهدد بإطلاق النار على أوّل مَن يتقدّمُ منهم.

بعد لحظة من التردُّد ابتعدَ البيظان وهم يطلقون عليَّ وابلا من السّب. وسمعتُ للحظات صيحاتٍ عاليةٍ، وطلقاتِ نار، ثم سرى الهدوء في المكان شيئا فشيئا إلى أن استحال صمتا رهيبا.



«تمكنتُ، وقد تملّكني اليأسُ من الإمساك بوتد من أوتاد الخيمَة ...» رسم لـ ج. جيرارديت انطلاقا من رسْم مبسّط للكاتب.

بقيت وحيدا داخل الخيمة مع الشابة البيظانية التي قدّمت لي الماء. ولمّا رأتني مُمدّدا على الحصير، وقد بلغ مني الإعياء مبلغه، دنَتْ مني ووضعتْ يدَها على كتفي سائلة:

- ما اسمك ؟ أجبتها:
- عبد الملك .
- أخبرني يا عبد الملك؛ لماذا أنت نصراني؟

رفعتُ رأسي ووجدتها تنظر إلي بعينين كبيرتين واسعتين تنمّان عن اهتمام منقطع النظير حَدَّ أنني تأثرتُ بالغ التأثر، وقلت لها:

- هل تعلمين أنَّ قومَك قساة القلوب؟ لماذا سلبوني، وأساؤوا معاملتي، انظُري لا زال فمي يسيل دما، أنا مثلكم جميعا، ومثلكَ أنتِ أيضا، خادِمٌ من خُدّام الله الأوفياء؛ ولم أوذ أحدا. ومع ذلك أنظري إلى ما صنعه بي قومك.

- لكن قل لي، أتيتَ من جهة البحر؟ وحدَهُم الكفّار يأتون من جهة البحر. لا بأس، دع عنكَ الخَوْفَ، فوالدي **إبراهيم ولد محمد** رجُل طيِّب، وستَبقى في خيمتِنا، ولن يمّسَك أحد بسوء. اسمَع يا **عبد الملك**، في هذا المخيَّم لا يوجدُ سوى القساة القلوب مِن قومي. ينبغي لك أن تقول لهم أنّك مُسلم صالحٌ. وسأقول للجميع أنّك خادم من خدام الله المخلصين لربِّنا.

كانت الشابة تتكلم بصوت خافت، وحتى لا يفوتني من كلامها شيء كانت تُكلمُني في أذني. كانت تلك أولى كلمات المؤاساة التي وصلتْ إلى مسامعي، وكانت من الوُدِّ واللطفِ حدًّا جعلها تُلَطِّفُ من مرارَة اللّحظةِ. كانت تجلسُ بالقرب مني وأكاد ألامسها. وأردتُ أن أشدَّ على يديْها بحرارة عرفانا بصنيعِها. وبحركة تلقائية تراجعت إلى الخلف معقبة:

– آه، لا يوجد أحدٌ هنا الآن: هل تعلم، عبد الملك، أنّه يُمنَع على الرجال عندنا ملامسة النساء.

ولمّا ألقت نظرة خاطفة على باب الخيمة، واطمأنّت إلى عدم وجود أحد مدّت إليّ يدَها الصغيرة التي شدَدتُها إلى صدْرِي بقُوّة.

سرعان ما جاء النسوة أشتاتا لرؤيتي. كُنَّ مُلتَحِفات في أثواب زرقاء يُغطّين بها أكتافهن، تاركات أثداءهُنّ عَارية. كانت لهن هيئة مَهيبة، وكنَّ على العموم ذوات بنية قوية، وعلى قدر كبير من الجمال بعيونهن السوداء العجيبة التي أصاب الشعراء العرب في تشبيهها بعيون الغزال. كانت أسنانهن غاية في الرّوعة. كما تشي هيئتُهن في مجموعها عن جمالٍ وحشي فتّان. كنتُ، بالنِّسبة إليهنَّ، موضوع تسليةٍ. كنَّ يغازلنني وهُنَّ يمزحْنَ معي. ولأنهنَّ لم يعْبأن بالمَبادئِ الصّارمة للبيظان التي نبّهتني إليها فتاة الخيْمَة منذُ حين، والتي تَحظُرُ على النِّساء حتّى ملامسة ثيابِ رجلِ آخر غيرِ أزواجهنَّ، فقد كُنّ يلمَسن جِلدي حتى يتأكدنَ أنَّ بُنيَتِي الجسَديّة لا تختلف كثيرا عن بُنيةِ ساكنةِ الصّحراء. وكنَّ، في الوقت نفسه، يخُضْنَ معي في مواضيع جريئة وهن ينفجرن ضاحكات. وبما أنني كنتُ أُنصِت بانزعاج إلى الضّجيج المنبعث من الخارج أُومَأتْ إليَّ إحداهنَّ بأصبُعها أنْ اِلزَمْ الصَّمْتَ، وقالت، مرفقة كلامها

بإشارة ميميّة غاية في الدلالة وهي تُمرِّر يدها على عنقها:

– لا تخرج ، لأنهم يريدون قتلك.

وحوالي الساعة الرابعة دخل مضيفي إلى الخيمة يخبرني أنني أسير إلى حين أن يتأكد من أنني مسيحي أو مسلم. وبما أننا في فصل الشتاء لم تمض لحظات حتى حل موعد أداء صلاة المغرب. توسَّط رجل من البيظان المخيَّم وصاح بصوت عال وهو يلتفت إلى جهاته الأربع :

– حيَّ على الصلاة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله ، الله أكبر ، حي على الصلاة.

خاطبني إبراهيم :

– هيا قُمْ للصلاة. سرتُ وراءه وسط الخيام. توافَد البدو بوجوهِهم الملثَّمة بهدوء وصمت، ثم اصطفّوا واقفين على خطٍّ واحد ينتظرونَ بخشُوع لحظةَ أداء سنة الوضوء. في الصَّحراء ونظرا لنُدرة المياه يؤدي المسلمون وضوءهم بالتيَمّم. وتتمثّل هذه العادة الطقوسية في تناول التّراب بالكفين، ثم يُمسح به اليدان على التوالي، ثم الكفين، فالوجْهُ. كانوا يولون وجوههم جهة المَشرق. وقفتُ وراءهم ورفع الإمام كلتا يديه، ثم صاح بصوت عال:

– الله أكبر!...

بعد ذلك رتّل سورة الفاتحة، أوّل سورةٍ في القرآن. ردّدَ البيظان وراءهُ السورة بصوت خافت، ثم انحنَوا ساجدين ووجوههم إلى الأرض مردِّدين : «الله أكبر، الله أكبر». كان المشهد، عند غروب الشمس وعلى الساحل، مشهدا رائعا ومهيبا. كل شيء كان ينمُّ عن المهابَة والعَظَمة والجَلالِ: هؤلاء البيظان ذوو الطباع الوحشية الذين يُصَلُّون بخشوع، وهذا الأفق الذي يتماهى مِن بعيد مع رمْلِ الصحراء وهذه السُّحب الأرجوانية، وهذه الوحدة، وهذا الصّمت الرهيب الذي يخيِّم على المكان. كان عددُ من البيظان يتلفَّفُ في برانس كبيرة من الصوف بفعل برودة الغروب. وعندَما كانوا يرفعون أيديهم نحو السماء أثناء دعائهم المألوف كانوا أشبَه عندنا بالقدِّيسين.

هكذا عادت بي الذكرى إلى حقبة من حقب القرون الوسطى الدمَويّة ، وبدا لي، وأنا أسير شبه عارٍ وسَط هذه الوُّجوه الدّاكنة والمُلثَّمَة التي تتوسَّل إلى الرحمان الرحيم، وكأنني ضحيةٌ من ضحايا محاكِم التّفتيش يقودُها الرّهبان المتدثّرون بمَعاطفهم، باتجاهِ المحرقة.

-3-

عندما وضعوا الحَديدَ في قدميّ- فوق المُنْحَدرات بحثا عن الأكياس - رَدْمي في الرّمل - العودة إلى المخيم - أمير من البيظان - المؤاساة والحزن ...

سرعان ما خيّم الليل. ودخَل كُلُّ بيظاني خَيمَتَه. كانت أسرة مضيفي تتكوّن من الأب والأم وخمسة أطفال، بينهم بنتان وخادمٌ وعبدٌ. أوْقَد البيظان نارا بالأشواك أمام باب الخيمة. وهُشَّ على قطعان الماشية التي دخلت لتوّها من المرعى. وفي انتظار العشاء تحلّق جميع أعضاء العائلة حول موقد النار يتحدثُون ويتجاذبون أطراف الحديث حول أحداث اليوم. هدّني التّعب، وأخذ مني كل مأخذ، وأنا غارق في الظلام داخل الخيمة تحت الوقاء، مُتلفِّفا بجلدٍ من جلود الإبل، وطفقتُ أتأمّل هذا المشهد الذي بدا جديدا عليَّ كل الجدّة. تغيّر المشهدُ، وأصبح الضوء الشاحب والمتناثر للموقد الذي ينعكسُ على الهيئة الوحشية والأجساد العارية للأطفال، يُضفِي عليهم مظهَر مُتوحِّشين. في لحظة واحدة ها أنذا أرى حياة البيظان الرُّحل في مظهرها الخارجي الحقيقيِّ،

حياة حماس ديني عند حلول وقت الصلاة، بقدر ما هي متوحّشة في حياتها الخاصة.

عند حوالي الساعة الثامنة قام العبد والراعي بإيقاف النوق استعدادا لحلبها. يُقسّم الحليب، بعد وضعه في إناء كبير من الخشب، بأقدار متساوية بين أعضاء العائلة ليأخذ كل واحد في النهاية وجبته الغذائية اليومية التي هي عبارة عن قصعة من الحليب. وبعد أداء صلاة العشاء يحينُ وقتُ النوم. فأمّا الخدمُ فيخلُدون إلى الراحة وسط قُطعان الماشية. أمّا الأب والأم والأولادُ فيتمدّدون على حصير يغطّي جنبات الخيمة كلها. ولأنهم متراصّون مع بعضهم بعضا، اتّقاءَ برودة الليل، يُلقَى على الجميع غطاءٌ ممتدٌّ، هو بمثابة غطاء للأسرةِ كلِّها. أمّا أنا المنهدُّ المنْهكُ، بسبب التّعب والإعياء الشديد، وبسبب الألم والتأوُّهات أثناء اليوم، فقد كنتُ أشعرُ، رويدا رويدا، بعينيّ تتثاقلان، و بعدها خلَدتُ لنوم مضنٍ و ثقيل. هكذا قضيتُ ليلتي الأولى في البيداء.

في الصباح الباكر، وقبل طلوع الشمس، استيقظتِ العائلة على صوت سيد الخيمة الذي أذّن للصلاة. بقيتُ خامدا في فراشي بسبب الحُمّى التي قضّت عليّ مضجَعِي خلال الليل، وبسببِ الوقت المبكِر. حينها ناداني إبراهيم :

– هيّا عبد الملك، قم واحضُر معنا أداء الصلاة.



صلاة المغرب في الصحراء، رسم جيرارديت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب

نهضتُ بمشقة بالغة. كان جسدي محُطّما بالكامل. وخرجتُ من الخيمة. ارتعدتُ بسبب بُرودة الصباح المتساقطة على كتفي العاريين. وقفتُ بمحاذاة مضيفي مرتعدا من رأسي إلى أخمص قدميّ، وأخذتُ أقلّده في صلاته. وعندما انتهينا التفتَ إليّ وقال لي :

– أحسنتَ، أنا راض عنك، وأرجو من الله أن تصير مسلما !

كان ثمّة أمرٌ يقلقُني. فقد كنتُ أفكّرُ في الكيسين اللذين تركتُهما وراء الصخور عند نزولي على الساحل. وقلت في نفسي لا شكّ أنّ أحد البيظان عثر عليهما وأخذهما. من جهة أخرى قد ينتشِر خبر اكتشافِهما، وسينال مني البيظان الذين قاموا بأسري اغتياظا من غنيمة أفلتَت من بين أيديهم.

كانت ستكون خسارة، وأية خسارة، لو بقي هذا السر دفينا، ولم أُطلِع مضيفي عليه. فلأفعلْ، إذن، مادام أنني أستطيع نيل عطفه بإطلاعه عليه. عزَمت على البوح فقلت له:

– إبراهيم، أريد أن أبرهن لك على تقتي بك. لقد نزلت بالساحل وبصحبتي كيسين من البضائِع: وقد قمتُ بإخفائهما في مكان لا يعرفه غيري. لو شئت سأصطحبك إلى مكانهما. وإذا كنتُ بُحتُ لك بهذا السر فإنما لكي تكون المستفيد الوحيد منهما. ظلَّ شاردا للَحظاتٍ، ثم قام و أجاب:

– هذا حسن، ثم ابتعد .

بعد نصف ساعة عاد إبراهيم وبصحبته جملٌ متسخ، وعشرة من البيظان المسلّحين الذين تعرّفتُ عليهم البارحة. تناول أحدهم الكلام وقال :

– في رأيي، يا إخواني، أنّ هذا الرجل مسيحيٌّ. إنه يُحدِّثُكم عن أكياس: هذا مجرّد هراء! هذه هي الحقيقة. لقد حضر إلى هنا متنكرا في صفة جاسوس. ومن يدري قد يكون أصحابُه مختبئون على ساحل البحر بين الصخور، وسيحملنا إليهم لكي يقتلونا. خذوا حِذركم فإن النّصارى مخادعون وخبثاء لا أمان لهم.

لاقت هذه الكلمات تقريبا استحسان وقبول الجميع. وأما النّسوة اللاتي كُنَّ على مبعدة من الجمع مُنزويات في ناحية المجلس فقد هّللن عند كلماته الأخيرة.

وأضاف الرجل قائلا:

– بالمناسبة، ماذا عن أخبار **عبد الله** و**محمود** الذين أرسلا ليلا إلى الأجراف والصخور للحراسة؟. لم يُجب أحد وأردف قائلا:

– حسن، أعتقد أنهما لقيا حتفهما على يد أصحاب هذا النصراني، فقد كان من المفترض أن يكونا قد عادا الآن.

حينئذ صاح بعض الشباب:

ـ قوموا لنبحث عن أخَوينا، ولنترك الأسير هنا، ولا داعي لأخذه معنا، حتى إذا افتقدنا أخوينا انتقمنا لهما، وقتلنا النصراني.

تدخَّل أحد البيظان الذين بدا أكبرهم سنّا، وألزم الجميع بالسكوت وقال:

– بل بالعكس؛ لنأخذ، معنا النصراني لنستدلّ به على مكان باقي الكفّار. ومادام يقول إنّ لديه أكياسا فذلك دليل على سوء نواياه، وسنذبحه ونلقي بجثته إلى البحر. وحتى لا يفر ونتمكن من كشف أمره سنوثق قدميه بالحديد.

حظي هذا الاقتراح برضا الجميع. وراح شابان من البيظان لإحضار الوثاق. وبعد برهة قفلا يحملان قيدان مربوطان بسلسلة حديدية ضخمة وثقيلة.

ثم قاموا بإلقائي أرضا. وبواسطة مدقٍّ، وما يشبه السّندان قيّدوني بعقدة في كل قدم على حدة، وحتى تكون جميع حركاتي في شلل تام، قاموا بوثاق يدي من الخلف. بعد ذلك رفعوني فوق الجمل، ثم شرعنا في السير باتجاه الصخور. كنتُ في مقدِّمة الموكب صُحبة إبراهيم الذي كان يحمل بندقيته على كِتفه. وعلى يميني ويساري كان البيظان يسيرون وهم يلغطون ويلهجون، ووجوههم ملثّمة، يحملون أسلحتهم في يد، وسبحة في اليد الأخرى. وفي الوراء، وعلى بعد مسافة، كان النسوة يتبعنهم على أمل أن يتزودن هنَّ أيضا من بعض بقايا الغنيمة. كان الفرح والجشع يشعُّ في عيون هؤلاء الرّحل جميعا. وكيف لا وهُم ذاهبون لحُضور حفلٍ يُعدُّ بالنسبة إليهم أجمل متعة من متع الحياة، أعني مشهدا من مشاهد النهب والسلب!

سرعان ما وصلنا إلى الساحل. كانت سلسلة من الهضاب تُشرف على البحر. ولم أكن لأخطئ الاتجاه الصحيح، لكنني تذكَّرت أنني نزلت أول مرة على مسافة قريبة من الموضع الذي تعرضت فيه للسلب. وعلاوة على ذلك كنتُ أردّ بثبات عن الأسئلة التي كانت تُطرَح عليّ دون انقطاع لمعرفة ما إذا وصلنا إلى المكان. مشيْنا منذ ساعة ونصف وبدَت الشكوك من صحة أقوالي تعلو وجوه البيظان الذين دُهشوا من عدم عثورهم على أي شيء.

بعد عشرين دقيقة تحوَّل الشّك إلى يقين لأننا لم نعثر على شيء. خاطبني إبراهيم قائلا:

- ويحك، لقد أخبرتَنا عند خروجنا أنّنا سنجد الكيسين على مسافة قريبة، وها نحن مشينا مدة طويلة. لم يعد إخواني يصدقون كلامك. الويل لك إن خدعتنا! بدا موقفي في غاية الحرَج والرعب. لم أكن أعتقد أن أيدي الناهبين قد وصلت بهذه السرعة إلى الكيسين أيضا. كيف أُعْرِب لهم، في هذه الحالة إذن، عن صدق نيّتي وصفاء سريرتي؟ استغربتُ كيف أنني لم أستطع أن أتعرّف موضع نزولي بالساحل. لم أكن أعتقد أنني قطعت كل هذا الطريق أمس. ورغم ذلك كان ثمّة بصيص أملٍ. لا أزال عاجزا عن التعرف على المكان الذي خبّأت فيه الكيسين بين الصخور. قلت لمضيفي:

- لقد اتَّبَعتُ طريق الله، وأنا على الدرب، ونيتي حسنة سليمة، لكن أقدار الله لا يعلمها إلا هو، فبالأمس نزلت في هذا الشاطئ بكيسين. أمْهِلْني دقائق ، وإذا لم نعثر على شيء، فتلك مشيئة الله وقدره، وسأمتثل لهما. مُنذ تلك اللحظة ازدادت محنتي وجحيمي . انهال علي الجمع بوابل من الشتائم واعتقدت أن نهايتي قد حانت. تقدّم نحوي بيظانيٌّ وبيده عظم ، والشرارة تَشِعُّ من عينيه، ووقف بحذاء الجمل وأشهر خنجره عاليا وهو يقول:

– ويحك أيها النصراني ، يا ابن الكلب، لقد جئت في صفة جاسوس ، وإذا كذبت علينا فسأذبحك بيدي هاتين من الوريد إلى الوريد. كان يقول ذلك وهو يلوح بسلاحه صارخا بملء فيه:

– سوف نذفنك في الرمال قبل أن نُجهز عليك. وكم سيبتهج الشيطان الرجيم وهو يسمع آناتك.

لقد بدا لي وأنا أرى وجهه المتغضّن والمكشّر أنني أمام الشيطان عينه .

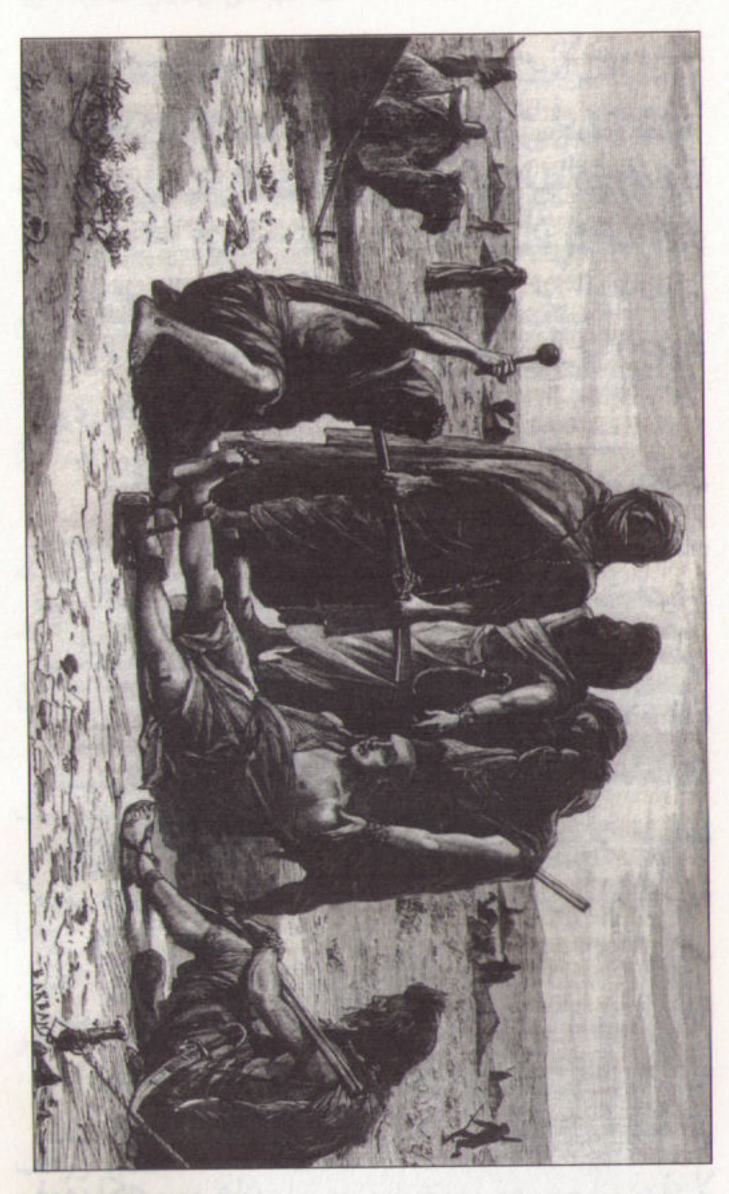
ياللهول !حينئذ تألّمت بطريقة مرعبة. هزّت حركة الجمل الحديد الذي كان يؤلم رجليّ. وكانت القيود تشد مرفقي شدّا مؤلما حد التورّم. و في لحظة من اللحظات بلغ مني الألم مبلغه إلى حدٍّ أنني تمنيت الموت بديلا عن عذابي.

وعندما بلغ اليأس مني مبلغه، وظننت أنني استسلمت لحالتي المؤسفة التي لا يسع المرء إلا أن يرثي لها تجلّت لي العناية الإلهية في صورة الكيسين اللذين وقعت عيناي عليهما بالمكان نفسه الذي وضعتُهما أمس. فصحتُ على الفور: «حمدا لله !» غير أنّ البيظان سُرعان ما انقضُّوا جميعهم للسّطو على الغنيمة.

اخترق إبراهيم، بوثبة سريعة، دائرة الجمع، ووقف على أحدِ الكيسين. وبإشارة سلطوية أوقف المتقدِّمين منهم. استلّ كثير منهم خِنجره وهَمّ، مع ذلك، بالتقدُّم.

لكن إبراهيم الذي بدا مخيفا أشْهَر سلاحَهُ هو الآخر، وهدّد بقتل أوّل من يخطو خطوة إلى الأمام صارخا في وجوهِهم: «أنا الذي أسرتُ الأسيرَ، وأنا من دلّكم على الغنيمة: وأنا من سيُشرف على قِسْمتها. وعلى الجميع أن يجلس. أمام هذا الموقف الرهيب هدأتِ نفوس الهائجين من البيظان، ثم جلسوا، وأنزلوني من فوق الجمل، و ألقوا بي أرضا، منهوك القوى بفعل الألم والتأثر الشديدين.

شكّل النّسوة اللواتي ابتعدن قليلا دائرة أخرى ينتظرن بفارغ الصبر المفاجئات التي كنّ يحلُمْن بها. نزع إبراهيم غطاء الكيسين، وأخرج منهما بالتوالي ما كان فيهما من أشياء. وبما أنني كنتُ أرغب في السفر، تاجرا مسلما، فقد حمَلت معي بضائع تناسب بلاد العرب كالقلائد والدمالج والأقراط، والمصنوعات الزجاجية، والعطور، والإبر، والأسلاك ...إلخ. قُسّم كلُّ ذلك ووُزِّع على البيظان الحاضرين قِسْمات صغيرة. وفورا نال النسوة بدَورِهِنَّ حَظَّهُنَّ من بقايا الغنيمة مثل العلب والأكياس والزجاجات والخيوط. كان البيظان يجهلون ثلاثة أرباع هذه الأشياء، وكانت الأشياء العادية جدا تثير دهشتهم. فظنا منهم أن الصابون شيء قابل للأكل، ونظرا للعطر الذي يفوح منه مال معظمهم إلى وضعه في فمه، لكنهم سرعان ما يرمون به عندما تبيّن لهم أن ذوقه لا يستجيب مع مظهره.



القيود في القدمين، رسم لـ ج. جيرارديت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب

ظَلَّتْ حادثة النهب هذه أحد أغرب الحوادث التي عرضَت لي خلال سفري، وسأتذكر دائما هذا المشهد على شاطئ البحر على الصخور الجرداء محاطا بهؤلاء البرابرة المتوحِّشين الذين كانوا ينهبونني، مُمسِكين بالخنجر في يد، وبالسبحة في الأخرى، شاكرين الله على هذا الثراء الذي منَّ به عليهم.

عند نزولي على الساحل كان الصيادون الكناريون قد ألزموني بأن أحمل معي سلة من المؤونة. وكنت وافقتهم على حملها شرط أن أضع فيها بضائع لا تكشف عن هويتي الأوروبية. ومن أجل ذلك أفرغت الخمر من الزجاجات، ووضعتُ مكانها ماء نقيا. كما لم أحمل معي بتاتا اللحم والسمك واستعضت عنهما الخُبز والفواكه. غير أنّ الصّيادين قاموا، على غفلة مني وبحسن نية، بدسِّ عُلبٍ من السّردين الزيتي داخل السلة.

إلى هنا كان فحص الأشياء التي حملتها معي متناسبا مع صفتي مسلما. ومما أسعدني، وجعلني أحظى بتقدير بعض البيظان هو، بلا شك، وجود مُصحف في بضاعتي. وبناء عليه ظننت أن حظوتي قد تعرضت للخطر بمجرد ما وقعت أعينهم على علب السردين. فتحوا العلب وسألوني عن كيفية استعمالها. فتبادرت إلى ذهني فكرة الرّد بأنها مجرد دواء ناجع.

وبما أنهم لم يشاهدوا، البتة، غذاء من هذا القبيل فإن البيظان لم تساورهم الشكوك في كلامي أبدا، بل إن إبراهيم بادر وهو يستغلُّ دوره كموزع للغنيمة لانتزاعه منهم، رغم جشع الباقين كلهم، محتفظا به لنفسه بعناية فائقة، معتقدا أنه امتلك الترياق الكوني.

ولحظة استئناف الطريق نحو المخيم تعرضت لأكبر خطر. فقد تفرق معظم البيظان بفعل انشغالهم المتسرع في القيام بتبادل بضائع الغنيمة أو استغراقهم في فحص الأشياء الجديدة التي وقعت بين أيديهم. انزوى إبراهيم للتشاور مع بعض أصحابه بصورة وجدت معها نفسي معزولا مع أربعة أو خمسة رجال. كانوا، بالتحديد، نفس الشبان الذين أرادوا قتلي الأمس. منذ دقائق لم تعد مناورتهم تطمئنني. كنت أرمقهم ينظرون يمنة ويسرة، يتبادلون النظرات، ثم ينظرون إليّ مرة أخرى هامسا بعضهم في أذن الآخر.

على حين غرة توجه البيظان نحوي وما كدت أن أصبح حتى كموني في قطعة من قماش. تم شرعوا يحفرون في الرمل بواسطة خناجرهم، وببقايا الصناديق. في لحظات أصبحت الحفرة من العمق ما جعلها تسع لردم رجل. تم أمسكوني بعنف شديد، وأنزلوني بشكل عمودي داخلها، ثم ردّوا عليّ التراب. شلَّ الرعب والذهول جسدي. كنت في حالة

تبعث على الرعب. كانت يداي ورجلاي المقيدان تؤلماني أشدّ الألم . وكانت الكمامة الموضوعة على فمي تحول دون تنفّسي. كنت بالكاد في وضع المختنِق. وكان وجهي المحتنق يعلِن عن وشك اقتراب نهايتي المقبلة، لأن البيظان الشّبان، رغبة منهم في إطالة تعذيبي، سارعوا إلى انتزاع الكمامة. ومع النفس الذي انبعث مني عاد الإحساس إلى جسدي وأطلقت صرخة مرعبة دوّى لها المكان كله.

عند صرختي تلك أُستُنفِر البيظان كلهم. لكن جلاديَّ قاموا، تلطّفا منهم، وإمعانا في النكال بي، بنزع القَصعةِ المصنوعة من الخشب المربوطة ببردعة الجمل الذي كنت أمتطيه ووضعوها، بعد أن ملئوها ماء، أمام عيني بعيدا عن شفتاي لتهييج العطش بداخلي.

كم وددت لو أستطيع رسم مشاعر رجل مدفون حيا. غير أن الكلمات تظل دون الواقع بكثير. كان ذلك شيئا مرعبا! كان جسمي مشلولا عاجزا عن الحركة، وذراعاي تكادان تتهشّمان من شدة الضّغط، ورأسي وقد أوشك على الانفجار. بدا لي وكأني داخل جحيم مستعر، وأحسست بجسمي يذوب شيئا فشيئا. كانت ضربات شراييني عنيفة جدا. وكانت عروقي تنتفخ حدّ التمزق. لم أفقد الإحساس بالإدراك لكن أحاسيسي كانت مبهمة وشبه جامدة. وخرجت عيناي، الممتلئتان دما، من مدارهما وصرت وكأني



رَدْمي في التراب ،رسم لـ ج .جيراردیت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب

أرى من خلال حجاب مُضرّج بالدماء. ثمّ أحسستُ بآلام وخزٍ في جسدي كله تتضاعف من فرط الضّغط إلى حدّ بلوغها الأجزاء الخارجية منه. وكان رأسي يغلي كما لو أنه شُدّ بحزام من حديد. وكانت أجفاني تنخفض أحيانا كما لو كانت مُحمّلة بالرصاص.

كنت أفكر في أزياء الكهنة الثقيلة التي كان يتحدّث عنها أليبغيري [12] والتي كانت تسحق أعضاء المنبوذين تحت ثقلها المدمّر. كما أن احتكاك الرمل الحارق بذراعيّ الذي كان يخنقني أكثر فأكثر، كان أشبه برداء نيسوس[13] Nessus يَنهشُني ويُدخل لحمي في جحيم ناري.

كانت هذه الانطباعات تتوالى في وقت وجيز حدَّ أنني أعجز عن وصفها. كانت تأتيني لحظات إدراكٍ مُرعبة حقّا. حينئذٍ نظرت بذعر إلى مَن حولي، ورأيتُ أربعة وحوش بوجوه بشِعة وقد استسلموا لرقْصَة صاخبةٍ حول رأسي الذي كان في حالة احتضار حقيقي. كانوا يقطّبون وجوههم المكشّرة وهم ينهالون عليّ بوابل من الشتائم.

تذكرتُ المسيح وكلماته الجليلة التي كان يُطلقها لحظة احتضاره المروِّعة. لكنني لم أكن سوى طفل ضعيف. وكان

(12) المقصود هنا هو الشاعر الإيطالي دانتي المعروف صاحب رائعة «الكوميديا الإلهية» (المترجم).

(13) كائن خرافي في الأساطير اليونانية.(المترجم)

الألم الجسدي يخنق بداخلي صرخة النفس. وبدل كلمات الغفران كانت اللعنات هي التي تتمتم بها شفتاي.

نبّهتُ الشبان البيظان إلى ما سيحيق بهم جراء غضب الله عليهم يوم القيامة. وبمجرد رؤيتي لمقدم إبراهيم قلت له إنني ضيف من ضيوف الله الذي شاء القدر أن أنزل عليه وما دمت مسلما حقيقيا فإنه لا يجمل به أن يتملّص من واجب الضيافة تجاهي. وحمَّلته مسؤولية حياتي أمام الحي الذي لا يموت. ونبّهته إلى لعنة الله التي ستلازمه إن هو تركني، وأسلم نفسي إلى موت مؤكد بعد نهبي وتجريدي من كل شيء. كان الألم قد هدّني، وفي كل مرة ينقبض فيها صدري كان الرّمل ينزل تحت جسدي ليتكدّس: وفي بضع ثوان شَلَّ صدري المختنق، كما لو كان في فرن، حركة التنفس إلى حدّ الاختناق. وفي هذا الوضع الميئوس منه لم تفارقني رباطة جأشي، وأحسستُ برغبة جامحة لترديدِ صلاة المحتَضرين. وبمجهود جبار استجمعت كل قواي وبصوت خافت ضعيف يشبه صوت المحتضر تمتمت سورة من القرآن. كان ذلك بمثابة الخلاص. فقد طرأ تحوُّل كامل في نفوس البيظان، وطفقوا يصرخون وكل منهم يضرب جبينه قائلا : « يا ويلنا، يا للمصيبة، إنه ليس نصرانيا !»

وبدأوا يتهيئون لإخراجي من الحفرة. وفي لحظة كنت خارجها. وفكوا يديّ، وقربوا الجمل مني فامتطيته، ورجعنا قافلين باتجاه المخيم.

عند وصولنا أمام الخيام قابلنا ناقتين بيضاوين يمتطيهما ملثمان من البيظان، يكشف مظهرهما عن مركزهما الاجتماعي المرموق. كانا يضعان عمامة سوداء وينتعلان حذاء من الجلد أصفر اللون. وكانا أعزلان، ويعلقان على صدريهما سبْحات. وما أن لمحا موكبنا حتى توقفا وسألا البيظان الذين تقدّموا بإجلال لتقبيل لباس الأصغر منهما، وأطلعوه على كل ما حدث. وما أن دخلتُ الخيمة حتى تسلّل النسوة والأطفال اللائي كن بداخلها فجأة. ثم رأيت الغريبين يدخلان. اقترب مني أصغرهما الذي يبدو أن له شأنا أكبر من الثاني بهدوء ومدّ لي يده وسلّم عليّ، ثم جلس على البساط إلى جانبي فيما انزوى صاحبُه جانبا عنا. تفرّساني للحظات، ثم أسفر الذي كلّمني عن وجهه. كان شابّا في الخامسة والعشرين من عمره تقريبا بملامح متناسقة، وبسحنة غامقة وشعَر أسود طويل. كانت أسنانه ناصعة البياض، ومتناسقة بشكل رائع. كان شبه أمرد وكانت هيئته توحي، بمجرد رؤيته، بالوداعة واللطف. كان أشد ما يلفت النظر فيه هو نظراته. إذ كانت تعلوهما كآبة ووداعة لا حدود لها؛ وكلما رفع أهدابه السوداء العريضة كان يرمقني بنظرته الشاردة، وبدا لي وكأنه يقرأ في وجهي الجميل

كُلّ تلك المشاعر الجميلة التي كان قلبه مُفعما بها. كان جمالُه الساحر والهادئ لافتا للنظر. كان بإمكانه أن يحقق حلم أكثر الجواري مثالية. وفي تلك اللحظة دعاه الشخص الثاني الذي ظل صامتا قائلا:

- سيدي أحمد البكاي .

ثم همس له في أذنه. عند سماعي لهذا الاسم علمتُ للتّو أنه أحد أبناء الشرفاء (أمير المسلمين) من الجبل الذين سبق أن سمعت عنهم البارحة. وكان الثاني (طالبه) (كاتبه). وضع الشاب الأمير يدي في يده وقال بصوت حنون ووديع وداعةَ نظرتِه:

- هل أنت مسلم يا أخي؟ أجبته بالإيجاب وعندها قال:

- ردِّد معي أن لا إله إلا الله والله أكبر، وأنّ محمدا عبده ورسول. رددت الشهادة معه. ثم رفع عينيه إلى السماء قائلا:

- حمدا لك يا رب ،حمدا لك يا رب، هذا عبدك. إنه مسلم! ثم نظر إلي وقال: -

- اسمع، أنت الآن أخي في الله ما دمت مسلما. واشكر الله على أن هداك إلى طريق الهداية. نعم! أنت بحق مؤمن، ما دام أن الله حفظ حياتك بعد كل هذه المحنة المريرة. فما

زلتَ شابا، وما زال أمامك عمر مديد. وستلتقي بوالديك وإخوتك، وربما زوجتك التي تنتظرك بمرارة. آه الحمد لله، الحمد لله ! ... لكن بالمقابل لو لم تكن عبدا حقيقيا لله تعالى، لو لم تكن مسلما فليسامحك الله، لأنه الرحمان الرحيم !. وفي تلك الأثناء دخل بيظان إلى المخيم، واصطفوا بصمت وراء الأمير وخاطبهم سيدي أحمد :



زيارة سيدي أحمد البكاي ، رسم لـ ج. جيراردیت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب

- إخوتي إن هذا الشخص بالنسبة لي مؤمن، وقد أخطأتم حين قيَّدتموه وسلبتموه ما عنده، لكن الله غفور رحيم. لا تسيئوا معاملته منذ الآن، لأنَّ دم المسلم عليكم حرام، وستُسألون عنه يوم القيامة !»

وما أن أنهى كلامه حتى رد الغطاء على وجهه، وامتطى جمله الذي كان ينتظره مقرفِصا أمام الخيمة. وبعد أن دعا للجميع مضى وصاحبه من ورائه.

عندما رأيته يبتعد شيئا فشيئا أحسستُ بانقباض في صدري. فقد خفَّفَتْ كلماته التي كانت كالدواء الشافي من آلامي النفسية. وشعرت حينها أنني أفقد أول صديق من أصدقائي بين البيظان.

-4-

الـمُدقِّق المُرتاب – العزيزة شابة البدو الرُّحل – سفر شاق ومؤلم – الشيخ ماء العينين زعيم البيظان الرحل – مخيم الشيخ – جلسة مع فقيه بيظاني – الاعتراف بي مسلما وإنزالي منزلة الأخ في القبيلة .

في اليوم التالي جاء لزيارتي شخص يُدعى **سيدي محمود**، زعيم وفقيه يتحدّر من **تافيلالت**. جاء إلى الخيمة مصحوبا بفقيه من قبيلته يدعى **رازعر**. وكان هذا الزعيم طاعنا في السن، يُجلُّه البيظان ويحترمونه. وبما أنه سافر وجال الشعوب الحضرية فقد طبَّقت شهرته العلمية الآفاق، ودرّت عليه الاحترام والتبجيل. وككل الزعماء والشيوخ كان يلبس عمامة من الحرير. ولاستقباله فُرش له بساط يُتّخذ غطاءً للعائلة خلال الليل. عندما دخل تفرسّني، وسلّم عليّ سلاما باردا، ثم جلس بجانبي حاملا سُبحتهُ في يديه، وتأملني طويلا في صمت مطبقٍ. دخل بيظان المعسكرَ واحدا تلو الآخر، وهم يضعون يدَهُم فوق رأس الزعيم، ثم فوق شفاههم، علامة على الاحترام والتقدير. وبعد هذه العـادة

في السلام جلس الجميع القرفصاء حول الخيمة. كان **سيدي محمود** أول من كسر صمت المجلس وسألني:

– ما اسمك ؟

– عبد الملك .

– من أين أنت ؟

– هناك في الأعلى ، في شمال الصحراء ، الجزائر.

– ما صنعتك ؟

– تاجر . أذهب لبيع البضائع في السودان عن طريق البحر وأعود منها بأشياء أعيد بيعها في بلادي .

– لكن لماذا أتيت من جهة البحر؟

– أتيتُ تحديدا من السودان في سفينة وغرقت بنا على هذا الساحل. وقد فرحتُ أولا، لأن الله منَّ علي من فضلِه بنزولي في بلاد مسلمة. لكن بدل أن أحظى بحفاوة الاستقبال التي تليق بضيف مكرّم لم أجد هنا غير اللصوص والقتلة. وسوف يحاسب الله هؤلاء الأشخاص الذين عاملوا غريبا أسوأ من معاملة الكفار على جُرمهم.

سرَت بين الجلوس همْهمَات، واستأنف الزعيم كلامه قائلا:

– لا أظنك مسلما. فقد سبق لي أن زرتُ **موكادور** والتقيت بالنَّصارى : فنظراتهم تشبه نظراتك.

– هل أنت إسباني ؟

قمت بإشارة تنم عن النفي .

– هل أنت انجليزي ؟

مرة أخرى اشرت بالنفي .

– بْروسِي؟

مرة أخرى حرّكتُ رأسي نافيا. لقد أتى الزعيم لتوه على ذكر أسماء يجهلُها البيظان. نظروا إليه باهتمام كبير ممزوج بالتقدير لعلمه الغزير. ولشعوره بالارتياح والزّهو من الأثر البادي على البيظان أراد مواصلة تَعدادَ قائمة أوطان النّصارى التي سمع عن أسمائها بالمغرب لكن ذاكرته خانته. بحث هنيهة ثم سألني بغتة:

– كناري ؟ قُنصُلي ؟

لم أتمالك نفسي من الضحك لدى سماعي للكلمة الأخيرة. ففي نظر زعيم الصحراء تدلّ كلمة قُنصل على اسم بلد مثل التي سردها على مسامعي قبل قليل.

حينها أخذت الكلمة، وفي كلمات عرضتُ كل الحجج

المنطقية المؤكدة لمعتقدي الديني.

أذهلتْ هذه الحُجج أكثرهم تفقُّها وعلما. واهتزّت عندها مشاعر **سِيدي محمود**. لكن سرعان ما ردّد الشبان البيظان بعنادهم الوحشي:



مخيم الشيخ ماء العينين، رسم لـ ج. جيرارديت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب.

– المسلمُ لا يأتي من جهة البحر. وعلى سبيل الاختصار قال **سيدي محمود** إنه على الرغم مما أوتي من علم فهو عاجز عن الحسم في القضية، وأنْ ليس ثمة سوى شخص واحد في الصحراء قادر على قول الحقيقة في قضيتي؛ وليس هذا الشخص سوى **الشيخ ماء العينين** زعيم البيظان البدو. التمس منه البيظان أن يُحرِّر ما يُشبه محضر للأحداث التي وقعت للتو لضمان حمايتهم أمام الشيخ. أمر الزعيم كل بيظان المخيم الحاضرين، وأولئك الذين نهبوا أشياء من متاعي أن يُصرِّحوا بها حتى يقوم بجردِها. فبادر كل واحد منهم إلى

إخراج ما استحوذ عليه منها. خرج كل واحد منهم، بعد دقائق، ثم عاد ومعه البضائع التي كانت من نصيبه. انتابتْني لحظة رعبٍ من مضيفي الذي نهب علبة سردين. فقد توجست خيفة من أن لا يعرف سيدي محمود، الذي قال أنه زار موكادور، شيئا عن علب السردين بالزيت، وبالتالي لا يجعل منها دليلا حاسما عن عقيدتي . لكن شيئا من ذلك لم يحدث و سرعان ماتبدّدت مخاوفي.

بعد ذهاب الزعيم أمكن لي الاستمتاع بلحظات من الراحة. خرجتُ من الخيمة وذهبتُ لأتمدّد على الرمل على بُعد أمتار من المخيم. أحسستُ بلذة عارمة في ترك أشعة الشّمس المحرقة تخترق جسدي، و نفسي المتوتِّرة التي كانت في أمسِّ الحاجة إلى الترويح، أو إلى الاستجمام لتتنفس الصعداء بعد كل ما كابدتُه من التّعب النفسي والجسدي. وبما أنني كنت في غفوةٍ ، فقد أحسستُ بأحدٍ يربِّتُ على كتفي، ورأيت أمامي العزيزَة وهي تبتسم وتُمسِك بيدي بطريقة غريبة. جلستْ بجانبي وبصوتٍ مواس قالت:

– عبد الملك ، نحن وحيدَيْن، أخبرني ما إذا كنتَ تتألم كثيرا ؟

أجبتُها:

– نعم ! إني أتألَّمَ كثيرا. ألا ترين إلى القيود في قدميّ، وكيف أني شبه عار من ملابسي. لم يرغب أحد في التصديق بأني مسلم وأخشى أن أعاني المزيد من سوء ظن البيظان بي. وأنت هل تصدقين أني مسلم حقيقيا؟ دنت مني أكثر وقالت وهي تنظر إلي:

– لا أدري، لم أر في حياتي مسلما يُشبِهُك. ولكن ما دمت تقول ذلك فأنت مؤمنٌ. أنتَ لست نصرانيا، لأنّك لست شريرا، وصوتُك وديع مثل صوت امرأة. آه ! كم أنا آسفة على ما تعانيه، وآسفةٌ على هذه القيود التي تُكبِّلُكَ، وأنك لست من إخوتنا. ولو كنت منا لقدت القافلة، ورافقتَ هودَجنا مُمتطيا جملا. ثم إنك ستذهب للقتال بسلاحك، ويوما ما ستمتلك كثيرا من القطعان.

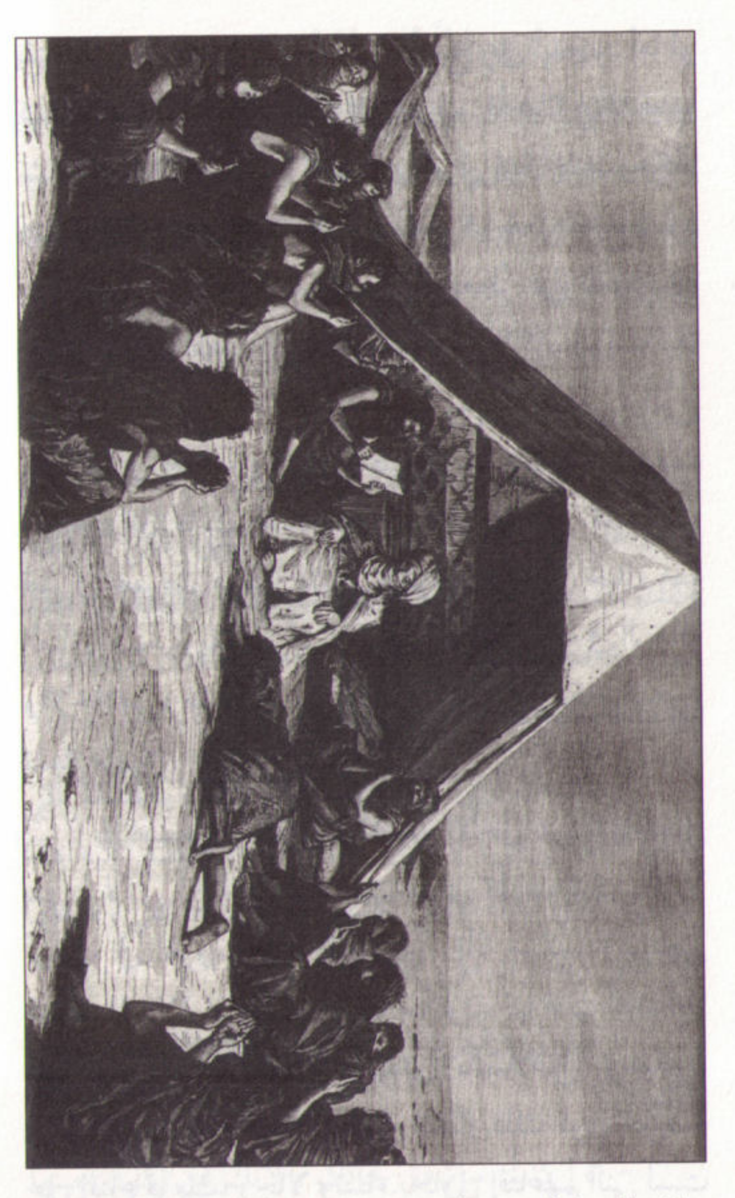
وددت أن أرى، وأنا متأثر، بالغ التأثر، باللّطافة التي أبْدَتها الفتاة إزائي، إلى أيِّ حدٍّ يُمكن أن يصل إليه هذا الاهتمام الذي أبْدَته تجاهي. فشددْتُ على يدها التي وضَعَتْها على كتفي وبصوت مؤثر قلت لها:

– قولي لي يا العْزيزة لو كنتُ نصرانيا ماذا كان سيكون رأيُك فيّ ؟

– آه ! كنتُ سأشفق لحالك ، لأنكَ لن تكون حينها مؤمنا. وسأشفق لحالك بالخصوص، لأن قومي سوف

يقتلونك: وسيؤلمني جدا أن أراك تُذبَح على أيديهم. أما لو كنت مؤمنا فسوف أساعدك على الهرب. فأحيانا هناك بعيدا نشاهد على البحر خياما للنصارى تجري فوق الماء. وهكذا عندما أرى إحدى تلك الخيام سأفعل كما يفعل قطيع شارد من قطعاننا عند غروب الشمس، ويعجزُ عن العودة إلى مخيمنا: سوف أذهب إلى شاطئ البحر، فإذا كان الوقت ليلا سأُوقدُ نارا، وإذا كان الوقت نهارا سأفكُّ حزامي وألوِّح به عاليا في الهواء، وسيأتي النصارى لتذهب أنت معهم، وأهرب أنا. كانت الفتاة تتحدث كالطفلة التي كانت من قبل في عمرها. هزّتني مشاعر العرفان بالجميل حُيال هذه الفتاة الصّحراوية التي أبدت نحوي مشاعرَ غاية في الرهافة والإخلاص، فشدَدْتُ على يدها بقوّة بعينين تكاد الدموع تسيل منهما:

– اسمعي يا العزيزة، الله هو الأحقّ عرفانا بالجميل مني ، لأنني لن أستطيع منحك سوى كلمات شكر. أنا لا أرغب في الهروب عند النصارى. فأنا مسلم، وسينتهي قومك إلى الإقرار بذلك. حينها سأكون، كما قلتِ آنفا، أخا لكِ، ولن تكون رجلاي مقيّدتين بالسّلاسل، وسيكون بمقدوري حراسة هودجك. وفي انتظار ذلك كوني حريصة على إقناع قومك، رجالا ونساء. حاولي إقناعهم أنني لست



جلسة مع الشيخ ماء العينين، رسم لـ ج. جيرارديت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب

كافرا، وبذلك ستُسْدينَ إليَّ معروفا أكثر من ترصُّدك لخيام النصارى وهي تمخر عباب البحر.

عندئذ، نودي على الفتاة، وكغزالة توارتْ عن أنظاري، وبقيتُ وحيدا تتوزعني مشاعر الخوف من جهة وكلمات التعاطف التي أبدتها الفتاة نحوي.

في اليوم التالي انطلقنا نحو مخيم الشيخ ماء العينين. وتَـحسُّبا لطول المسير ومشقّته قُدّمت لي قصعةٌ من اللبن. ولأنني امتطيتُ جملا فقد كنتُ في مقدِّمة القافلة. كان يرافقنا ثلاثة أو أربعة بيظان. وعلى الرغم من أنني غير متأكد من المحنة التي تنتظرني فقد كنت أشعر بلذة لا تدانيها لذة من سيرنا في اتجاه الداخل. كنتُ في عجلة من أمري لمغادرة هذا المكان الذي قاسيت فيه الأمرين، وهذا الساحل الذي يذكرني بذكريات مرعبة. وهكذا سأدخل حاضرة لم تطأها رِجلُ أوروبي من قبل. هذه البارقة من الأمل أمدّتني بالشجاعة.

في طريقنا صادفنا مخيّمات عديدة. كان البيظان يأتون ليتعارفوا بينهم وُيسلِّم بعضهم على الآخر. وحين علِموا بحضوري هرَعوا لرؤية هذا «النصراني». كان النسوة وهنَّ يمتطين هوادجهن يقُمن بدورات كبيرة وسط جموع الحاضرين كي يقتربن ويتفحّصْنَني. كُنّ يُطلقن العنان لأنواع شتى من التعليقات حول شخصيتي.

وفي مساء اليوم الأول من مسيرنا توقّفنا عند مخيم ينتمي إلى فرع من فروع قبيلة الشيخ ماء العينين. وعلى الفور أحاط بي نِسْوتُها وصبيانها من كل حدب وصوب، وأصمُّوا أذناي بصياحهم وصخبهم وأسئلتهم. كان بعض النسوة يُعدِّدن أصابعي، ويلمسن وجهي. بلغت مني الإثارة مبلغا جعلني أبادلهم صنيعهم برغبة جامحة. وسرعان ما أصبحت الجموع المحيطة بي عدوانية أكثر فأكثر. اقترب الصبيان مني وبأيديهم الحجارة، أما النسوة فكن، قبل أن يمطرنني بوابل من السب والشتم، يُشِحْنَ بوجوهِهنّ، ويبصُقن على الأرض تعبيرا منهنَّ عن الكراهية والإهانة. وكان بناتهنّ يبذلن ما في وسعهن من قوة للوصول إلى ذقني و لكْمي. وفي لحظة من اللحظات علا الصياح والصراخ حدّا جعل الرجال يبادرون إلى تهدئة النّفوس، وجعلي في مأمن من الشتائم.

وسرعان ما نادى أحد البيظان النَّاسَ إلى الصلاة بصوت جَهْوري. ومثل اليوم الأول، حيث كانت وضعيتي حرجة جدا على الساحل، تقدّمتُ لأداء الصلاة مع الجماعة، غير أن النسوة تكالبن عليّ كالفُوريّات[14] يردن منْعي من ذلك. فرَضَ البيظانُ الصَّمت والهدوء. على الجميع فاستطعتُ

(14) آلهة شريرة في الميثولوجيا الرومانية مكلفين بتنفيذ العقاب على المجرمين في جهنم. (المترجم).

أن أمارس طقوسي الشعائرية مستقبلا القبلة. وما أن سرَحت بتأملاتي بعد أداء الصلاة حتى سمعتُ صوتا يناديني. التفتُّ ورأيت امرأة عجوزا وفي يديها قصعة مُلئت بحليب ساخن، ودعتني إلى الشرب. كنت أتضوّر من الجوع، وطفقت أشرب الحليب بشراهة وأنا أنظر إلى العجوز نظرات تحمِل عرفانا بالجميل لصنيعها ذاك وقالت:

– اشربْ لستَ كافرا . فقد أديتَ الصلاة بإيمان. والله سوف يجازيك أحسن الجزاء أشرب حتى تشبع !

لم يكن في اليومين الآخرين من المسير ما يلفت النظر. فقد تقاطر البيظان الذين صادفناهم في طريقنا زرافات لرؤيتي. وفي المخيم، وما إن أرخى الليل سدوله حتى كنت على وشك أن ألقى المتاعب نفسها التي لاقيتها البارحة. وطفِق النسوة والأطفال في التسلّي عبر تحفيظي كيفية أداء الصلوات. واستسلمتُ مرة أو مرتين لأهوائهم تلك، ثم غرقت في سكون مُطبِق. وإذ أثار هذا الصمت غيظهم، وأدركتُ للتو أن الأمور تتجه نحو الأسوأ مرة أخرى، إذا برجال من المخيّم يتدخّلون ويصطحبونني معهم إلى الخيمة.

في اليوم التالي شرعنا في السير ساعة قبل طلوع الشمس. وكان علينا في النهار أن نصل إلى مخيم الشيخ ماء العينين. مُلأَ قلبي رعبا من لقاء هذا الزعيم الكبير، والحقيقة

أنني ما أزال أتذكر كيف أنه أوفد مبعوثين له لقتل م. م **كيروكا** (M.M.Quiroga) وسيرفيرا (Cervera)، وهما رحّالتان إسبانيين كانا يجوبان منطقة **أدرار**. ولو لم يطلق الرحالتان ساقيهما للريح لما أفلتا من قبضة جلّاديهم. كما سألت كثيرا من البيظان عن هذا الزعيم. وكانوا يزودونني عنه بكثير من التفاصيل المشوِّقة جدا. كان رجلا في غاية الصلاح، تقيا وغنيا وتقيا جدا. تلك كانت ردود رفقائي على أسئلتي. كان يمتلك عددا من النوق تُعدُّ بالمئات؛ وكان متزوجا بأربع نساء شرعيات. وهو شيء نادر لدى البيظان الذين لا يتزوجون بغير زوجة واحدة. أضف إلى ذلك أن قدسيته كانت من البداهة حدّا جعله يمتلك حق إتيان المعجزات. هكذا يروون أنه رد الحياة، في الشهر الماضي، إلى ناقة تسبب قتلها في حرب ضروس بين فَخْذتَين من القبيلة.

ذلك على الأقلّ بعض ما صرّح لي به رفقائي في السفر. لكن يجبُ أن نضيف أنّ أحدا منهم لم يكن شاهد عيان عمّا وقع، وأنهم إنما كانوا يتناقلون فيما بينهم ما كان يتردّدُ من أصداء في الصحراء.

في المساء وصلنا إلى مشارف مخيم الزعيم الكبير في وسط تلّ أحاطت به عدد من الخيام المحاذية لبعضها بعضا بخيمة مرتفعة شيئا ما يكشِفُ لونها وشكلها أنها من صنع

الأوروبيين. كانت خيمةً تشتمل على ثماني زوايا في شكل قُبّة من القباب مكسُوّة بقماش أبيض من الحرير. كان المخيم في حركة صاخبة واندفع حشد من المحاربين المنتمين إلى كل القبائل البدوية الصحراوية نحو الخيمة التي يعقِد فيها الشيخ جلساته. لم يكن لهذه الخيمة المصنوعة أيضا من قماش وليس لها شكل ولا حجم وكانت شبه منعزلة في زاوية من المخيم. مَثّل مقدمي حدثا، هرع الجميع لرؤية هذا الكائن العجيب الذي جاء من جهة البحر. وفي خضم الحشود التي أحاطت بي رأيت أشخاصا من مختلف قبائل الصحراء الغربية كـ **أولاد الدليم**، بملامحهم الفظة، وشعرهم الطويل المتدلي على الأكتاف، وأهل **الركيبات** وهم من طبقة النبلاء عند البدو الرحل، الذين يتمتعون بحظوة كبيرة بسبب أصلهم الشريف الذي يسعون إلى فرضه من خلال هيئتهم ولباسهم. وكان هناك أيضا **العروسيين** الذين يرقى أصلهم أيضا إلى النسب الشريف، لكن بشعرهم المجعّدٌ ووجوههم ناتئة الفكين التي تدل على اختلاط في الأعراق والأجناس. وأخيرا هناك **الوادنونيين والفيلالين** القادمين من تافيلالت الذين يشغلون وظائف معلمين في الصحراء.

لم يستطع أشد المحاربين شراسة من أن يتمالكوا أنفسهم عندما علموا أني نصراني فأرادوا اختطافي. بذل رفاقي ما في وُسعهم من قوة للدفاع عني وإحضاري أمام خيمة الشيخ.

كان هذا الأخير يرأس حفل تقبيل اليد ويوزع ذخائر الأولياء والصالحين على البدو الرحل الذين قدموا من جهات التلال الأربع للتبرك ببركة الشيخ الولي الصالح. أجلسوني عند باب الخيمة لأكون هدفا للناظرين، حتى يتمكن الشيخ من التّدقيق فيّ على مُكثٍ أثناء الحفلة. بدا الشيخ ماء العينين وهو جالس على سجاد مغربي في هيئة بوذي هندي وقد تحلق حوله طلبته. كان مكشوف الوجه، وعلى رأسه وشاح بحجم كبير لا يصدّق. لم يكن يُرى من هيئته الضخمة، وهو مندسٌّ في ثنيات حايك من اللون الأزرق السماوي، غير عينيه البرّاقتين ويديه اللتين يضعهما على ركبتيه. كان البيظان يجثون عند عتبة الخيمة ووجوههم إلى الأرض، و يزحفون لتقبيل يد العالم البدوي. كان أغلبهم يطلب أدوية للعلاج، وكان الشيخ يمدهم بحفنة من التراب ينفث فيها من أنفاسه المقدسة، فيحمل البدو الرحل معهم هذه العطية بعناية فائقة، مع إظهار تام لواجب الاحترام والتبجيل له. كان الزعيم، بين الفينة والأخرى ، يدير عينيه نحوي وبمجرد ما أن تتقاطع نظراتنا حتى يخفض جفونه ليظهر مختليا في خشوعه من جديد. وفي لحظة من اللحظات تمتم ببعض الكلمات وأشار عليّ الطلبة أن أدْنُ. كانت قدماي لا تزالان مصفّدتين. نهضتُ وقد لفتَتْ صلصلة الحديد في قدميّ انتباه الجميع، وسرت نحو الشيخ

ماء العينين في صمت مطبق. كان ذلك مشهدا مهيبا لن أنساه ما حييت.

أمرني الشيخ بأن أجلس بالقرب منه حتى كدت ألامس ثيابه. حينئذ مدّ لي يده اليمنى فقبلتها على النحو الذي صنع مع البدو. ثم طرح عليَّ بنبرةٍ حازمة، إلا أنّها رَهيفة أسئلة عديدة. كان يعرف اسم الجزائر؛ وكلَّمْتُهُ عن هذا البلد.. كما لو كنت أحدثه عن وطني بإخباره أنني كنت فرنسيا ، غير أن هذه الصفة لا تلغي شيئا يُذكر من صفة كوني مسلما، وأنه في بلدنا كان ثمة مسلمون لا يقل إيمانهم عن مسلمي الصحراء، وأن الجزائر كانت موطنا لظهور العديد من الشخصيات من ذوي الصلاح والتقوى ، وأن لدينا زوايا مباركة امتد صيتها إلى بلاد السودان. سألني الشيخ:

- هل تعرف قراءة الفاتحة؟

رددت عليه بالإيجاب، ثم طلب مني تلاوتها بصوت عال. وعندما انتهيت من تلاوتها سألني ما إذا كنت أعرفُ الكتابة باللغة العربية. أجبتُه بأني، دون أن أكون فقيها أو طالبا، أعرف منها ما أكون في أمسِّ الحاجة إليه في معاملاتي التجارية. طلب منّي أن أكتب اسمي على الرَّمل بعودٍ من الخشب، فكتبتهُ في الحال. وعندما أجبتُ بطريقة مُقنِعة على

كلِّ أسئلته تناول الكلمة، وتوجّهَ إلى البيظان الذين كانوا ينتظرون حُكمَهُ بترقُّب بالغ:

– يا إخواني الله أكبر ! هذا الرجل مسلم حقيقي. انزعوا عنه الأغلال وردّوا عليه كل ما سلبتموه واستقبلوه في قبيلتكم أخا، الله أكبر، الله الرحمان الرحيم !

هكذا نطق الشيخ ماء العينين بالحكم. وعلى ذلك افترقْنَا. سرتُ وراء البيظان الذين جاؤوا بي إليه، وعندما وصلنا إلى جمالنا، عند مدخل المخيّم، امتطيناها واستأنفنا طريقنا إلى خيامنا. ورغم مطالباتي بنزع الأغلال من قدميّ فإنهم لم ينزعوها عني فورا. وبدَا أنّ حُكم الشيخ لم يلق إلا رضا قلة من الذين سلبوني كل شيء. كان أشد ما ضايقهم، بالطبع، هو أن يردّوا عليّ ما نهبوه مني. ثم إنهم في صَلافَتِهم المتوحِّشة لا يريدون عقد العزم على الإيمان بي مسلما. كان شعورهم يتأرجح بين قناعاتهم وبين كلمات الشيخ ماء العينين المستلهِم من علم الله وبركاته. كانوا يسعون إلى أن يُقنِع بعضهم الآخر بقولهم : إن الشيخ الذي لم يخطئ البتة قد أخطأ هذه المرّة».

في تلك اللحظة خطر ببال أحدهم أن يحكُم حكما آخر رآه نهائيا وفاصلا. كان هذا الذي أراد البيظان أن يجعلوا مَصيري النِّهائي بيده هو الحاجّ، الوحيد في المنطقة، واشتُهر

بعلمِه الغزيرِ بحُكم رحلاته الكثيرة. كان يُدعى **الحاج إبراهيم** ووُلد بتافيلالت. كان علينا أن نمدد من سيرنا يوما آخر لكي نصل إلى خيمتِه. ولدى وصولنا وجدناه منشغلاً بشكل متواضع برعيِ أغنامِه. لم تكُن صورتُه التي رأيتهُ عليها تتفق مع الفكرة المتخيّلة التي كوّنتُها عنه. كنت أعتقد أنني سألاقي رجلا شكّاكاً ومتعصباً، وإذا بي أرى شيخا مُسِنّا ذا هيئة بشوشة يصغي إلى ما صدر عن البيظان لدى الشيخ ماء العينين في شأني، وعقْدِهم العزم على طلب حُكمِه هو. عندَما رآني تقدّم نحوي بخطوتين متردِّدتين أو ثلاثة كمَنْ داهَمَتْه فكرةٌ مفاجئة، ومدّ يده إليّ قائلا:

– لكنه رجل تركي ! ألست تركيا؟

كان ذلك بالنسبة لي خشبة النَّجاة وانتهزتُها في الحال قائلا:

– بلى، سيدي الحاج، أصبتَ كبد الحقيقة، أنا بالفعل تركي رغم أنني أسكن الجزائر. أعقب الحاج :

– تبّا ! تبا ! لا يمكنه إلا أن يكون تركيا. ثم توجّه إلى رفقائي قائلا:

– أطمئنُّوا أعزائي، إنه مسلمٌ مخلص، إنّه تُركي.

طلب البيظان الذين لم يسمعوا كلمة تركي من قبل تفسيرات عن هؤلاء المسلمين غريبي الأطوار الذين تختلف هيئتهم عن الصحراويين. إذّاك شرح لهم الشيخ كيف أنه عندما ذهب إلى الحج مرّ بمدينة الإسكندرية التي رأى بها أتراكا كانت لهم نفس ملامحي تماما ومع ذلك كانوا مؤمنين. في هذه المرة لم يجد البيظان بُدّا من الانحياز لرأي الحاج إبراهيم، على مضض ، والتعامل معي بوصفي مسلما. وهكذا بلغ أسري منتهاه.

عُدنا إلى المخيّم حيث تمّ استدعاء الطلبة وأُعلنتُ أخا أمام بيظان القبيلة كلهم. نزعوا عني الأغلال وأعطوني جلود حيوانات شأن كل شباب القبيلة وقطع ثياب للتغطية. كما سلموني بندقية وخنجرا، وبدءا من تلك اللحظة إلى حين مغادرتي للصحراء انضممت عضوا في قبيلة مُحاربي أولاد الدليم.

لم أسترد مما سُلب مني إلا القليل. ألبستي المغربية مثلا كانت من نصيب شابين ذهبا منذ يومين في رحلة إلى السينغال. وقسم كبير من بضاعتي توزعته أيدي النساء، وليس من اللائق أن أنتزعها منهُنّ، لأني سأجدني مرغما على مقاسمة هؤلاء البدو حياتهم لفترة من الزمن وبالتالي عليّ أن أتصنّع نوعا من التعاطف الذي كان ينقصني حتى هذه اللحظة.

وفي الصحراء، مثلما هو الشأن في البلدان الأخرى، للنساء تأثير قوي على عقول الرجال. وهكذا تنازلت عن استرداد أغراضي عن طيب خاطر. إلا أنني ألححت في استرداد بوصلتي بحجة استدلالي بها على القبلة. كانت بوصلى رائعة بإطار شمسي وكنت لا أستطيع الاستغناء عنها خلال تلمّسي لمساري بين هضاب الصحراء.

-5-

مُخيّم قيْدَ المَسير- توقُّف المخيّم واستئناف المسير- تناول وجبة العشاء- مدرسة عند البدو الرحل- صهر عنيد- مأدبة- ولادة طفل- حِلاقة شباب البدو- ألعاب البيظان البدو.

بعد يومين استأنف المخيم طريقه في اتجاه الجنوب الشرقي. كان الهدف من الرحلة هو القيام بزيارة لصهر مضيفي الذي يقطن على تخوم الهضاب هناك.

في الأيام الأولى من مسيرنا استأنستُ بأخلاق البدو وعاداتهم. فقبل طلوع الشمس بساعة يستيقظ ربُّ الخيمة فينادي العبيد والخدم والنساء والأطفال لأداء صلاة الفجر. يلزَم رُبع ساعة قبل أن يستيقظ الجميع ويتهيئون للوضوء. أحيانا كثيرة تُسمع نداءات وصراخات متتالية، بل وشتائم أحيانا أخرى لانتزاع الأطفال من سهادهم، فيتظاهر هؤلاء بعدم السماع ويشرعون في البكاء، يليه صراخ وضجيج يندُّ عن الوصف. ومباشرة بعد أداء الصلاة التي يشارك فيها النساء والبنات يقوم هؤلاء برزمِ أمتعة الخيمة وتحميلها على الجمال. أما الرجال فيقفون يراقبون العملية. ثمة خمس

إلى ستة جِمَال روِّضت على حمل أمتعة المخيم وتستقبل أحمالها التي لا تتغير أبدا ،لا في وزنها ولا في أحجامها. وفي أثناء ذلك تتصدّر القافلةَ قطعان الخرفان والماعز، يقودها راع بيظاني في اتجاه مرسوم. ما أن يُنتهى من تحميل الخيمة يشرع النسوة في وضع الهوادج التي يسافرن فيها على الجمال الطاعنة في السن[15]. تكون هذه الهوادج في شكل سلّة كبيرة فُرشت بالجلد ويعلوها سقف في صورة قبة من القصب مخصصة، كرداء، لحماية المسافرين من أشعة الشمس و رمال الصحراء. بعد ذلك يشرع قطيع الإبل في السير محاطا بالرجال والأطفال من كل جانب.



مخيم أثناء المسير، رسم لـ ج .جيرارديت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسَّط للكاتب.

خلال الساعة الأولى لا تتوقف الإبل عن السير، غير عابئة بقضم جذوع النباتات التي تطؤها. وشيئا فشيئا

(15) تسمي العرب الجمل الكبير في السن لفظ «الهرش» والناقة «الفاطر» (المترجم)

تخف سرعة القافلة ويشرع القطيع في التشتت مواصلا أكل العشب رغم مواصلته لمسيره . تلك هي الحال إلى أن يحلَّ المساء وتغيب الشمس في الأفق.

وأثناء المسير يختار البدو منبسطا أرضيا لنصب الخيمة. وهو عمل يوكل إلى النسوة، بينما يمضي الخدم للبحث عن الحطب لإيقاد النار، أما الأطفال فيقدحون حجر الصوان[16] طلبا للنار. أما الرجال الذين يعود إليهم شأن العناية بالبعير دون غيرهم فيقومون بإناخة[17] الجمال وتنظيمها أمام الخيمة، ويعيدون ما شرَد من الخرفان والماعز إلى الصفِّ. بعد ذلك يجلس الجميع متحلِّقين في شكل دائرة يتبادلون أطراف الحديث بانتظار وجبة العشاء. حوالي الساعة الثامنة لحظة بعد أداء صلاة العشاء، يقوم الأطفال بترويض النوق، وينزعون الشمّالة[18] عن ضُروعِها، ويمنَعون صغارها من الوصول إليها، ثم يقومون بعد ذلك بحلبِها. وتقوم سيدة الخيمة، التي تجلس أمام قصعةٍ كبيرة من الخشب مُحاطة بقصاعٍ أخرى من مختلف الأحجام، بالإشراف على عملية القسمة. بعد ذلك

(16) نوع من الحجارة الصلبة التي يضرب بعضها ببعض لتتطاير شظايا نيران . وقد استعملها البشر منذ غابر الزمن لاكتشاف النار.(المترجم)

(17) أناخ الجمل : أبْرَكهُ. (المترجم).

(18) كيس من خيوط الوبر المنسوجة نسجاً خفيفاً، يلف على ضرع الناقة الحلوب، ويشد بحبال ونسع جميلة من الصوف تعلو ظهرها وتمتد حول نحرها (المترجم).

يقوم عبد من العبيد بصب الحليب المحلوب لتوه بأقدار محددة. ثم يُكافأ العبد عن ذهابه وإيابه الدائم بشرب رغوة الحليب الملتصق بحواف الإناء. تبدأ المرأة، أولا، بوضع حصّتها جانبا، وغالبا ما تكون دوما حصة الأسد. ثم يُقسّم الحليب بالتوالي على الأطفال و الرجال وأخير على الخدم. كان توزيع الحليب يتم وسط صراخ الأطفال وبكائهم، وضروب من التشكّي من ضعف حصته. ولهذا السبب تبدأ الوجبة تقريبا بوابل من الشتائم واللكمات العنيفة. كان معظمهم يفضل الحليب الساخن. وبما أن الأواني الخشبية لا تُعرض على النار فإنهم يلجؤون إلى حيلة ذكية عبارة عن تسخين الحجارة في النار إلى أن تحمرّ فيلقون بها في حليبهم.

بعد ذلك ينام أفراد الأسرة على الحصير في نفس الوضعية ورؤوسهم إلى باب الخيمة ،متراصين بعضهم إلى جانب بعض؛ اتّقاءَ بُرودَة اللّيل. ثم يُمدّدُ غطاءٌ طويل على الجميع، ويأخذ كل واحد منهم قسطه من الراحة؛ بينما ينام العبيد والخدم متدثّرين في لباسهم وسط قطعان الماشية.

في اليوم التالي، كما هو الحال قبله، يستفيق الجميع ساعة قبل طلوع الشمس ويشرع المخيم في استئناف مسيره حتى حلول المساء وكذلك الحال في باقي الأيام الأخرى، إلى أن يُعثر على السهول الخصبة التي تسمح بالمقام أياما في المنطقة.



بئر في السهوب، رسم لـ ج .جيرارديت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب

في مسيرنا الأول هذا رأيتُ مدرسة أو بالأحرى معهدا متنقلا شدّ انتباهي كثيرا.



حلْبُ النوق ، رسم لـ ج .جيرارديت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب

لقد وصل التعليم والذكاء عند هؤلاء البيظان تطورا يشكل مفارقة صادمة مع طبائع المسلمين الحضريين الذين

يقطنون في أفريقيا الشمالية. وهذا الذكاء المتيقظ باستمرار بفعل حياتهم المفعمة بالمغامرات، ما انفك ينمو بسرعة ، ويعجبُ المرء من رؤية الأطفال وهم يخوضون في أكثر النقاشات جدية. ويحظى التعليم بينهم بمكانة سامية في إبداء المفاخر بينهم، ولهذا يكاد جميع البدو الرُّحل يعرفون الكتابة بالعربية. ونظرا لتعصُّبهم الشّديد فإنهم يمضون قسما من حياتهم في دراسة القرآن أو شرحِهِ ، كما أن جدالاتهم الدينية تُكسِبُهم مزايا خطابية حقيقية. وفي الصَّحراء توجد أفخاذٌ من القبائل نذَرَتْ نفسَها لتربية الأطفال. فالشُّغل الشّاغل للفيلاليين، مثلا، الذين هاجروا في الماضي من تافيلالت، ويعيشون عادة في منطقة **رأس بوجدور**، هو جمع التلاميذ من حولهم، وتحويلِهم خِيامَهم إلى أكاديميات حقيقية. وعندما يتّفق وُجودُ أحدٍ من هؤلاء **الطَّلْبَة** [الطالبُ الفقِيه] في مخيّم ما، وبمجرد ما أن تُنصَب الخيمة، يلتئمُ الأطفال من الجنسين، أسيادا وعبيدا، حول مُعلّم من معلِّمي البدو الرحل ليتعلّموا حروف اللغة العربية وآيات من القرآن. وفي غياب الورق يكتفي كل بدوي صغير بحمل لوحة من الخشب [«تالّوحْتْ»] يكتب عليها بوساطة فحم خشبي. كما يتّفق أحيانا أن تمرّ أشهر دون العثور على **طَالْب**. ومع ذلك تستمرُّ التربية، ويقوم الكبار في السن بتعليم الصغار. وفي كل

الأحوال تظل المدرسة ترفيها حقيقيا بالنسبة لأطفال البيظان؛ ولهذا فهم يتابعون دروس علماء البدو عن طيب خاطر.

كان صهر إبراهيم، الذي يُدعى النّاجم، يقطن في منطقة **دادس** على التخوم النهائية للهضاب في الشرق، على حافة الصحراء الكبرى تحت الخط المداري تقريبا. قضينا خمسة عشر يوما للوصول إلى مخيمه. كان الناجم قويا وغنيا ويملك خمسين جملا ،وخمسمائة او ستمائة من رؤوس الأغنام والماعز، وثلاثة من العبيد. وكان له ولدان آخران وعندما زوّج ابنته منينة إلى مضيفي طَالَبَه بصداق مقداره عشرة جمال. مضت عدة سنوات لم يلتق فيها بصهره. وقد خصّنا بحسن الاستقبال وابتهج برؤية الأطفال الأربعة الذين ولدوا منذ آخر زيارة قام بها لأبنته. كان شيخا شهما لكن بِطَبْع ميّال إلى الشّك. فعندما علِمَ بالظروف التي جعلتني مضيفا على ابنته لم يستطع، أول الأمر، إخفاء شعوره بالحذر والحيطة تجاهي. ونظرا للتَّزَمُّت والعناد المألوف لدى شيوخ البيظان توهّم أن حضوري سيجلب الشؤم للأسرة التي استضافتني. كنت مضطرا إلى استثمار كل حيلي الديبلوماسية لأحظى بترحيب الشيخ. وخلال ساعات طويلة خضنا في نقاشات مستفيضة كانت تُختتم دائما بالمونولوغ التالي: «لست كافرا بالتأكيد، بالله عليك أثبت لي ذلك، فأنت تعلم أن الاحتكاك بنصراني يدنس

الجسد والروح معا. ولنجثو، يا بني على الأرض ولنشهد بأن لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله !...» وخلال أيام نجحتُ في إقناعه، وأبدى فجأة، بفضل إحدى التقلبات المعتادة في مثل هذا النوع من العادات، الكثير من اللطافة تجاهي، وعاملني بأكبر قدر من التحرّر، و حرص على أن يستدرك الاستخفاف الذي قابلني به بأحاديث لا متناهية عن سعادة الذين حباهم الله بنعمه ورعايته.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أكلت فيها اللحم على الطريقة الصحراوية عند هذا البيظاني. وخلال الخمسة عشر يوما من مسيرنا كنا نتغذى فقط على حليب النوق أو على خليط الشعير المقلي. واحتفاء بمقدمنا قام الناجم بذبح ثلاثة خرفان. بدَتْ وجْبَةً استعرض فيها البدو الرحل أفانين نهمِهم وشهيتهم المفرطة في الأكل. تُقطع الخرفان المذبوحة من الرأس إلى الأقدام ، وتكدّس قطع اللحم في قدر مملوء بالماء يغلي على النار. وفي انتظار نضوج اللحم توضع الكبد ومصارين الحيوانات في أتون وما تكاد أن تنضج حتى تقسّم على الضيوف. وعندما تنضج قطع اللحم جيدا يستلُّها أحد البيظان بيديه ويوزعها دائريا. كانت قسمة فريدة من نوعها، ولأنني لم أرها تُنفذ على هذا النحو إلا هذه المرة فإني لا أستطيع السكوت عن وصفها. شكل الحضور الذين كان عددهم في حدود العشرين حلقة كبرى حول الموقد، وكان

البيظاني الذي يؤدي دور الطباخ يرمي كل قطعة في اتجاه أحد المضيفين الذي يضطر للإمساك بها في الهواء. أحيانا يخطئ الضيف في الإمساك بقطعته فتتدحرج على الرمل. كان ذلك أقل المتاعب حدوثا بالنسبة للضيف، ثم سرعان ما تسعف قطعة قماش في نفض الغبار عنها على القطعة لتعود الأمور إلى مجراها، ويشرع كل واحد من الضيوف في قضمها بأسنانه دون ملح وتوابل. كان نصيبي من هذه القسمة عظم الكتف والرقبة.

وعلى الرغم من أنني أخطأت في الإمساك بقطعتي الأخيرة في الهواء وقيام الذي كان بجواري تأدُّبا بنفض الغبار عنها بكمٍّ ثيابه فينبغي لي أن أعترف أنني لم آكل في حياتي مثل هذه الأكلة. ولما لم يبق من القطع غير العظام بدأت منافسات تلاطف تجاه النسوة. فكل مَن كان حظُّه من القسمة عظم الساق، أو أيّ عظمٍ فيه مُخّ يعطيهِ للنساء مرفوقا بكلمات ملاطفة، لتقوم هذه الأخيرة بقبوله شاكرة وتشرع في قضمه وكأنه قطعة من الحلوى.

كنا نسير باتجاه الشمال، وشحّ الماء أكثر فأكثر. لم نعد نعثر على الماء إلا مرة كل عشرة أيام. أما في السّهوب فنجد الأحواض بدل الآبار. يقوم البيظان بحفر الأرض في الأماكن المناسبة فتصير حفرا لاستقبال مياه الأمطار. وما أن

ينزل مخيمٌ بأحد الأحواض حتى يتمّ عزل القطعان في ناحية. يغترف البيظان الماء بفضل دلو من الجلد ويصبونه في وعاء كبير من جلد الماعز وتأتي الحيوانات لترتوي منه. كما يستغل البيظان فرصة وصولهم إلى الآبار ليغتسلوا اغتسالا حقيقيا ويملئون جميع القِرب التي في أيديهم ويواصلون المسير.

وعند وصولنا إلى **زمّور** وضعَت إحدى النسوة طفلا. وبما أن النساء يسافرن في هوادج فإن هذا الحدث لم يوقف سير القافلة. وكما العادة عند مغرب الشمس، وبعد اختيار المخيم مكان نزوله، أمكن، إذّاك، للمرأة والمولود الجديد النزول من مطيتهما. وعلى كل حال فإن الولادات في سهوب الصحراء تكاد تكون واحدة، يستوي في ذلك الأطفال والحيوانات. كنت حاضرا بينهم عندما كانت الماعز والنعاج تضع صغارها. وكان الراعي، مرات عديدة في اليوم، يلتحق بالقافلة حاملا معه جديين أو حمَلين، أو ثلاثة، يضعها في سلة مُخصّصة لحملها. ولا يُرجع الصغار إلى أمهاتها لإرضاعها إلا في المساء عند المجيء إلى المخيم. والشيء نفسه يُصنع بالنسبة للفِصَالِ حيث تُأخذ الجمال الصغيرة وتوضع في ما يشبه الهودج مدّة أسبوعين على ولادتها.

يبدو البدوُ الرّحل بُسطاءَ في أفراحهم. فليس هناك ما يُلفِت النّظر عند ولادة طفل من أطفالهم. فهم يكتفون بذبح خروف أو خروفين، ويُطلِقون أعيرة نارية، ويهنِّئون

الأب. لكن إذا كنا نجد الأفراح أقلَّ صخبا فإن العادات، بخلاف ذلك، متميزةٌ جدا لدى بعض قبائل البدو الرحل. وهكذا عندما تضع الأم ولدا في قبيلة **سيدي محمد** تدْهَنُ وجهها بالحنّاء مدة أربعين يوما. وإذا كان المولود أنثى تكتفي بدهن نصف وجهها على ما يبدو. وربما أن البشاعة التي تبدو على وجوههن شهرا بعد وضعهنّ تعود لأسباب صحية باعتقادي. فضلا عن أنني لم أر النساء الشابات والفتيات يدهنّ وجوههن بالطريقة نفسها إلا مرة واحدة في الشهر بالتحديد.

ونغتنم هنا فرصة استراحة كي نحتفي بحفلة عائلية غريبة بما فيه الكفاية.

فشباب البدو الرحل يضعون على قمم رؤوسهم ثلاث أو أربع خصلات من الشعر. وفي كل مرحلة كبرى من حياة نُموِّهم فتيانا تُقطّع إحدى تلك الخصلات ويأخذون كامل الحيطة لجعل خصلة مؤخر الرأس آخر ما يُقطَع. ولأن هذه الأخيرة أصعب الخصلات قطعا فإنها تتدلّى كثيرا، وكثير من الفتيان يصلون إلى سن الرجال ووراء ظهورهم خصلة شعر أشبه بحصير حقيقي. ولا تبعث هذه الزينة على المفخرة أو التباهي لدى البدو الرحل ، ولهذا تجدهم يسارعون للتخلص منها. وخلال مسيرنا الأخير وجد ولد من أولاد مضيفي،

الذي تميز بكونه كان معتنيا بالقطيع ولكونه أشرف لوحده على ترويض ثلاثة فصال، نفسه مضطرا إلى التخلص من إحدى خصلاته التي تعلو هامَته. ثم حدَث أيضا نُفوقُ إحدى الخرفان، وخلال يومين من توقفنا حاولنا قدر المستطاع استعادة قوانا وتعويض ما حُرمنا منه طيلة الأيام الماضية.

كانت التّسلية المفضلة لدى شباب البدو الرحل، وحتى الرجال، هي وضع أحدهم وسط دائرة وتهييجه بالصراخ ولكْزِه [19]. ولا يسع هذا الأخير الدفاع عن نفسه إلا بأن يقفز في الهواء ويقوم بوثبات، حتى إذا لمس أحد شركائه خرج من الحلقة تاركا مكانه للذي أخطأ ضربه. وتتطلب هذه اللعبة كثيرا من الخفة والرشاقة وتحظى بالتقدير الكبير لدى البدو الرحل، كما تشكل أروع مظاهر التسلية والترفيه عندهم. وليس هناك ما هو أغرب ولا أعجب من رؤية هؤلاء البدو بشَعَرهم المتهدِّل وهم يطلقون صرخات مرعبة ويثِبُون وثْبات عالية كي يُهيّج بعضهم بعضا. كانت الأرض ترتج من تحتهم. يُخيلُ للمرء أنهم جماعة شياطين تترنح في حلقة جنائزية.

(19) لعبة مشهورة لدى أهل الصحراء يُسمُّونها «أرَاحْ» (المترجم)

-6-

هلوسة في الصحراء- رياحٌ سموم ومُترَبَة- عرس- رقص وابتهاج- هجوم على قافلة- معركة وإبادة- مقابر النصارى الغرقى.

مِن زمور توجّهنا نحو الشمال الغربي باتجاه رأس بوجدور. وقبل أن نصل إلى الساحل لاقينا في طريقنا سهلا مجدبا رمليا كثيبا، يُعرف لدى البيظان بـالرّك. سيظل عبور هذه المنطقة الكثيبة أحد أكثر الحلقات رسوخا بذاكرتي في هذه الرحلة. تزودّت الجمال بمخزون هائل من الماء في الآبار الأخيرة تحسُّبا لمشاقّ الطريق. و سيقت الأغنام والماعز مرات عدة بعد ذلك إلى مورد الماء، كما مُلئت جميع القِرب المتاحة بأكبر قدر ممكن من المياه. لا شيء يبعثُ على الملل أكثر من السير ثلاثة أيام في هذه المنطقة الصخرية الموحشة والجرداء. كانت الشمس الحارقة، التي يجعلها إشعاع الأرض أكثر جحيما لا يطاق، تقضُّ مضاجع الجسَد وُتسلِمُ النّفس إلى فتورٍ حقيقيٍّ. في نهاية اليوم الأول من سيرنا ألّمت بي ظاهرة

طبيعية يتعرض إليها أكثر ساكنة الصحراء. ذلك أنّ الحرارة وضروب الحرمان تثيران الجهاز العصبي إلى درجة تجعل المرء يشعر بأنواع من الهذيان يسمّيه الأهالي **الرّلْك**.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة أو الرابعة بعد الظهيرة. كان المخيَّم وقطيع الإبل يسير في الأمام، بينما كانت الماعز والخرفان المنْهَكة بسبب الحرّ تتبعها على بعد مسافة كبيرة في الخلف. امتطى جميع البيظان جِمالهم المفضّلة بسبب مشقّة السير. أمّا النّسوة والأطفال فقد خلدوا إلى النوم في الهوادج بفعل مطاياهم المتمايلة ببطء. ألهَمَ هذا الموقف أحدَ البدو فطفِق ينشد أحد الأنغام الكئيبة من نغمات الصّحراء، يوقظُ إيقاعُها الفاتر حنينَ الذّكريات... حدث ذلك في الشهر الثاني من مقامي لدى البيظان. كانت ضروب الحرمان المختلفة، وخاصّة انعدام الغذاء جعل جسمي هزيلا شاحبا، وصار جهازي العصبي أكثر عُرضةً للحسّاسية. وفجأةً غيّرت الصّحراء مظهَرها: فقد صارت مُسطَّحة ومُستوية كأنّها صفحةُ بحيرة. تلاشت الحجارة وفَسحت مكانَها لرمال ناعمة مُتلألئة كأنّها التماعاتُ البلَق[20]. وفجأة وجد الجمل الذي أمتطيه نفسه مُنعزلا، ووجدتُ نفسي وحيدا بين السماء والأرض فوق هذه الهضبة المتلألئة. ثم سمعتُ من بعيد

(20) نوع من الحجارة البراقة. (المترجم)

أصواتا عذبة وشجية مثّلت لأذنيّ ما مثّلهُ السّطع المتلألئ لعيْنَيّ. سمعتُ ما كان سمّاه بيظاني أصواتا سماوية. فما كان يراه بيداء كنت أراه جنّةً. وخلال المدة التي استغرقتها هذه الرؤية تلاشى الشعور بالإدراك تماما. لقد كنتُ تحت تأثير ضربٍ من ضروب التّنويم الميغناطيسي. كنتُ أجلس جلسة عمودية فوق مطيّتي ولم تنسدِل جفوني، لكن ظاهري كان يكشف عن طبيعة الظاهرة التي وقعتُ تحت تأثيرها. فقد بادر بيظانيٌّ، دهِشاً من رؤية عينيّ وهُما تحدِّقان في الأفق عبثا، إلى ضرْبي على كتفي قائلا: «هيّا، استيقظ، استيقظ، لقد أصابك **الرّلك** ! ستصيرُ مجنونا !»

زادت الرّياح الحارقة التي تهبُّ من جهة الشّرق من صعوبة سيْرنا في اليوم الثاني في هذه المنطقة المُقفِرة. كان الجوّ خانقا جدا، والرَّمل المتناثر عاليا يحجُب الأفق ويلفُّنا بغيوم كثيفة. كان الرجال والحيوانات يلهثُون وينهَجون. وكانت الدّواب المسكينة، وقد أهاجتها الرياح، تحني رؤوسها إلى الأرض خافضةً جفونها. كنّا مضطرين إلى تغطية وجوهنا بالكامل، حتى لا نُصاب بالعَمى، وتَجِفَّ حَناجِرُنا. تسلّلت الرمال المتناهية في الصغر بين كل المسامِّ. ما من شيء يُمكنه أن يُغلق بإحكام. وهذا ما يُفسِّر تلك العادة الثابتة لدى البيظان، من الجنسين معا، بتغطية الجزء السفلي من وجوههم. ذلك أنه يستحيل تماما أن يواجه المرء ريحا كهذه بوجه مكشوف.

السهوب في بوجدور، هي سهوب خصبة جدا ويطلق عليها البيظان كدية. وقد أقمنا في هذه المنطقة وحضرتُ عرسا من أعراسها.

يتقدم الخطيب، لدى البدو الرحل كما هو الشأن لدى باقي المسلمين، بالمهر إلى أو بالأحرى يشتري المرأة التي يريدها زوجة له. ويؤدى عندهم ثمن مهر الفتاة بقطيع من الأغنام أو بعملة «الدورو» وهي العملة الوحيدة التي يتم تداولها بالمنطقة . من تم يقال مثلا إن قيمة المرأة الفلانية هي خمس أو سبع أو اثنى عشر جملا . فبمجرد ما تقع عين الشاب على الفتاة يدخل في مفاوضات مع أهلها .وإذا كان أهل الفتاة من أغنياء القبيلة والشاب فقير يبادر صهره فيقوم بالواجب يساعد في الأسرة الجديدة. أما إذا كان الطرفان معا فقيران فإن الخاطب حينئذ يطلب المعونة من أصدقائه لجمع ثمن المهر.

كانت مناسبة هذا العرس فرصة لكي أرى لأول مرة رقصة صحراوية. وكما الحال عند العرب فالنسوة وحدهن هن اللواتي ينصرفن لأداء هذه الممارسة. فقد أعجبت برقصة صحراوية لعبث فيها فتاة رقصة رائعة. كانت الفتاة في الرابعة عشرة من عمرها. كانت عيونها غاية في الروعة والجمال، غاية في الرشاقة وذات قدٍّ ممشوق. كانت تتقدم بخطى جريئة

ممتزجة بنوع من الاعتزاز والزهو. أقيم العرس أمام خيمة العروسين الشابين. وكان الوقت مساء بعد غروب الشمس، والسماء مرصعةٌ بالنجوم . شكّل البيظان حلقة واسعة، وأوقدوا وسطها نارا هائلة يمدُّونها بحطب من شجر الشوك لإضاءة المكان. تجمّع النّسوة والفتيات معا، فيما كان الرجال يتجاذبون أطراف الحديث ويتندرون فيما بينهم ولم يكن يعكر صفوها غير هدوء الصحراء وصمتها الرهيب. وبمجرد ما أعطيت الإشارة ساد المكان صمت مطبق، وقامت الراقصة الشابة لتأخذ مكانها في وسط الحلقة في الوقت الذي كانت الآلتان الموسيقيتان تمهدان لمقدمة موسيقية رائعة. تتلخص الآلات الموسيقى عند البدو الرحل في آلة ناي مصنوعة من القصب، كما هو الحال في الأيام الغابرة زمن فرجيل[21] ودفّ. وكالصحراء فإنّ موسيقاهم غاية في الرتابة. لكنها كالصحراء أيضا لها هذا السحر الذي يليّن المشاعر ويجعل النفس حالة مستسلمة لسيل من الخيالات والرؤى. عند النغمات الموسيقية الأولى اتّخذت الفتاة وضعية شهوانية شبقية، وبعينين شبه مغلقتين تظاهرت بتشنج. ثم وسّعت، عند تسارع الإيقاع، من جفونها كما لو أنها استيقظت من سبات عميق، وعندما وضَعت يديها على الردفين، إشارة منها على متابعة الإيقاع بجسدها المتمايل، حدّقتْ بعينيها الواسعتين

(21) شاعر روماني عاش ما بين 70 و 19 قبل الميلاد. (المترجم)

السّوداوين في جموع الحاضرين. نوّعت من حركاتها ووضعية جسدها بشكل لاشعوري، وبدَت في لحظة من اللحظات وكأنها تحت تأثير سِحري. تفتَّحت فتحَتا أنفها، ووسّعت عينيْها، وظلّلَت خدّيها حُمرةٌ خفيفةٌ، ثم انبعث من صدرها صفير اختلط بكلمات غير مفهومة ، بينما كانت باقي النسوة يتضاحكن في احتشام فيما كان عقول الرجال في شبه شرود تام يُقلّبون سبْحاتهم، ويحلمون بحوريات جنة نبيهم محمد.

ينتهي الاحتفال بإطلاق رصاصات في الهواء وتبادل التهاني. وينصرف النسوة للغناء، فيما يلعب الأطفال ببعض بقايا العظام، والطلبة يُرتّلون سورا كاملة من القرآن. وعند العشاء يأكل الناس كثيرا من القمح المطحُون، ووجبة رئيسية عبارة عن تمور مُبلّلة في الحليب الساخن. امتلأت بطون كل المدعوين تقريبا عندما هموا بالانصراف، فأبدوا رضاهم بكلمات «الحمد لله» دون انقطاع. وأما العروسَيْن فقد استسلما لقضاء ليلة رائعة في خدر أُعدّ من وبر الجمال مُتّخذين من حصير القصب فراشا زواجيا.

لم يطل مقامنا في **الكدية** وبعد أيام من الراحة ما لبثنا أن استأنفنا مسيرنا نحو الشمال.

فقد اشتُهِرت القبيلة التي حللت ضيفا عليها في الصحراء الغربية بكونها قبيلة شرسةً. شراسةٌ لم يكن مبالغا

فيها تماما. وهذا ما جعل جميع البيظان الآخرين يخشون سَطوَتهم. فبينما كنا نسير نحو الشمال رأينا في الأفُق قافلة تسير في الاتجاه المقابل. كانت رُؤية الجمال محمّلةً يشير إلى أن الأمر يتعلق بقافلة تجارية. سرعان ما أُرسل رجلان ليستطلعا القادِمين. وبعد نصف ساعة عادا ليخبرانا بأن القافلة قادمة من تندوف وهي محمّلة بتُمور من **تيريس**. كانت تتكون من ثلاثين رجلا، وعشر نساء، وبعض الأطفال، وثمانية وأربعين من الجمال، ذكورا وإناثا [...] سرعان ما أُتُّخذ قرار الهجوم. توقف سير المخيم وتمّ تفريغ حمولة الجمال، ووُضِعَ النسوة والأطفال في مكان آمن خلف تل أرضي. بعد ذلك أُعِدّت الأسلحة المتكوِّنَة من بنادق بالحجارة، مُستَوردة من السينغال، وخناجر مغربية، وبعد أن يمتطي كل بيظاني جمَله يتوجَّه مباشرةً نحو القافلة، شارك كل رجال المخيم في الإغارة، كنا ثمانين محاربا. أقول "كنا" لأن الأوامر صدرت بضرورة أن أرافق الفرقة الغازية لاستعمال السلاح الذي زُوِّدت به عند الضرورة. وعلى سبيل الحيطة وضعوني وراء الفرقة، بحيث لا يجب أن أشارك في الإغارةِ إلا عندما تكون وضعية المهاجمين في حرج. وعندما لم يعد يفصل بيننا وبين القافلة سوى ثلاثمائة متر أشهَر إبراهيم، الذي كان يتزعم الحملة، بندقيته عاليا صارخا "باسم الله !باسم الله!" وأسرع بمطيّته في اتّجاه البيظان التُّجار. تبِعَه رجاله بوجوههم المكشّرة التي تثيرُ الرُّعب ، مُطلِقين

صرخات مفزعة لترويع ضحاياهم. ونظرا لرداءة ذخيرتهم وأسلحتهم فنادرا ما يكون عيار من أعيرتهم النارية قاتلا، حتى ولو أُطلق من مسافة قريبة. لكن الرُّعب في نفوس البيظان كانَ أشدَّ مِن الأعيرة المُطلَقةِ. وما أن تناهى إلى علم أصحاب القافلة قدومَ الهاجمين حتى تفرّقوا شذر مذر، دون أن يُفكّروا حتى في الدفاع عن أنفسهم. وبمعدل ثلاث رجال في مقابل واحد كان التفكير في المقاومة مستحيلا. وفي عشر دقائق كانت جثث رجال القافلة ملقاةً على الأرض، بينما تمكّن خمسة منهم من الفرار على مطاياهم السريعة. وأما الخمسة وعشرون بيظانيا الباقون فقد تمّ ذبحُهم. كان مشهدا مروّعا. أصدرت الجمال المذعورة صرخات أنينها، ورفَع النسوة أذرعهُنّ نحو السماء يُولولن وينتحبن ويبكين بكاء يُفتّت القلب. كان الأطفال يصرخون ممسكين بتلابيب أمهاتهم، بينما كان بعض البيظان التعساء يتمرغون فوق الرمال، وسط بِرك من الدماء، يغالبون سكرات الموت. قُسّمت الغنيمة على الفور. وتمّ توزيع النسوة والأطفال بين الغزاة بالاقتراع، وقُيدوا أسرى. واستأنفنا السير كما لو أن شيئا لم يحدث.

نحن الآن نسير بمحاذاة ساحل المحيط. وهي منطقة موحشة جدا، بتلالها الرملية، وهضابها الصخرية. لاقينا في

مسيرنا خمسة أو ستة قبور **(البروج باللغة العربية)** مخصصة للأوروبيين الناجين من الغرق، وقتلهم البيظان. يقوم كل مسافر بإلقاء حجارة على قبر من القبور، متمتما بعبارات لاعنة، فيزداد حجم القبر في كل عام. كأنما الطبيعة، وقد أشفقت على هؤلاء الذين يرقُدون في الساحل الموحش، أرادت إنقاذهم من غياهِب النسيان. غطيتُ قليل من الرمال النباتية التي حملتْها الرياح إلى هنا الفجواتَ بين الأحجار، وأزهرت بعض الورود وسط الحجارة. جَثوْتُ خفيةً على ركبتي أمام أحد تلك القبور، وتمتمتْ نفْسِي المتأثّرة ببعض كلمات الأسى الأولى التي ألقيت على هذا القبر، وقمت بخشوع بقطفِ زهرة صغيرة زرقاء احتفظت بها بتجلّيات إيمانية.

-7-

طلبي للزواج- خطيبتي- سيرا باتجاه تندوف- حسن الضيافة لدى البدو- الحرمان والتعب- الوصول إلى تندوف- مستودع العبيد الكبير- جنازة محارب شاب- في الطريق إلى جنوب المغرب- أول قرية في الصحراء

عند وصولنا إلى الساقية الحمراء حدث أمر كان له أبلغ الأثر في علاقاتي ومقامي لدى البيظان الرحل. فقد أبدى إبراهيم، مضيفي، تعاطفا كبيرا معي ورآى رؤيا يزوجني فيها بابنته العزيزة. لم يفاتحني في الموضوع بشكل مباشر ووجد ضالته في وساطة بعض المحاربين الشباب بالمخيم نفسه. وكما ذكرت خلال حكايتي هذه فإن الخطيب لدى البدو الرحل، كما عند المسلمين جميعا، هو من يأتي بالمهر. و بعد مفاوضات عدة تمّ الاتفاق على أن يكون مهري سبعة جمال . لكن أداءها كان محلّ إرباك. فلأنني نُهبت وسُلبت في بداية رحلتي لم يكن في حوزتي أي شيء . فكيف لي أن أقدِّم سبعة جمال؟ حينها لاح لي ما يمكن أن أستفيده من هذه الصفقة. منذ زمن طويل وأنا أبحث عن ذريعة منطقية كي أغادر البدو الرحل. هكذا

كان عرض الزواج والصعوبة في تسديد المهر ذريعة مناسبة. مضيت للقاء إبراهيم وكلمته تقريبا هذه الكلمات:

- ببالغ السرور أقبل العرض الذي تقدّمتَ به لي. لكن سُلب مني كل شيء كما تعلم، وعليه فليس باستطاعتي تقديم المهر في الحال. ومع ذلك توجد طريقة في تسوية المسألة. إن شئت ذهبنا معا إلى **واد نون** وتُقدّمني إلى القايد **ولد بيروك** بصفتي صهرك مستقبَلا، وتطلُب لي منه مطية ومرشدا يقودني إلى المغرب عبر سوس وأنا أعرف المغرب وسيسهل عليّ معرفة الطريق إلى بلادي ، وبعد شهور إن شاء الله سأعود سالكا الطريق نفسه، حاملا معي المهر، بل وأكثر مما اتفقنا حوله.

قبِل إبراهيم عرضي، فكان اتفاقنا على أن نسلك طريقنا إلى جنوب المغرب بعد أيام.

كانت خطيبتي الشابة، **العْزيزَة**، فتاة رشيقة في ربيعها الثاني عشر، لها عينان واسعتان سوداوان بأهداب طويلة، وبشرة سمراء. كانت ممشوقة القدّ، بقوام فارع. عندما كانت تمشي بتقاسيم جسدِها المتلفّف في ثنْيات مُتناسقة من لِحافها المصنوع من قماش قطني، ويداها على الرّدفين، وذراعاها وثدياها عاريان، يبدو لي وكأنّي أرى إلى حامل قرابين في العصور القديمة، وأتذكر أبيات الشاعر العربي : «كالظبي

في مشيتِها، وقدُّها كالسيف اليماني» [22] وفي مساء اليوم نفسه الذي قدم لي فيه إبراهيم يد ابنته انفردت بالفتاة تحت الخيمة. اقتربت مني ووضعت يدها على يدي قائلة:

- يا أخي. (هكذا كانت تناديني منذ أن أُسرتُ) لن أناديك منذ اليوم إلا خطيبي. لقد تآلفت أرواحنا لأنك عندما كنت عبدا مسكينا كنت أريد إنقاذك. والآن وقد صرت أخا لي شاءت قدرة الله أن نسكن تحت خيمة واحدة إلى الأبد. فحمدا لله يا عبد الملك، وحمدا لله الذي جعل **العزيزة** خطيبة لك !

ثم إن الفتاة سمحت لي بعناقها الأول.

يجب أن أعترف بأن الفتاة البدوية هزّت مشاعري بكلماتها. كنت قد تعلمت كيف أدللها. وكنت أحبها كما يحبُّ المرء أختا. عندما كانت بجانبي وتوشوش لي بصوتها الناعم بآلامها وأفراحها وأطراحها صرتُ صديقها الحميم المؤتمن على أسرارها. وكم كنت أنسى من ورائي العزلة وضروب الحرمان والعذابات حينما كنت أصغي إلى عذراء الصحراء وهي تقول لي ببراءة مثل نشيد من اناشيد الإنشاد : «آه، يا أخي أنت نخلة هذه الواحة وأنا وردة الدفلى الـمُتفتّقة في ظِلّك !»

---

(22) رغم الجهد الذي بذلناه لم نتمكن من إخراج البيت الشعري . ولعله أن يكون ترجمة بتصرف لأحد الأبيات الشعرية المشهورة التي تشبه فيها المرأة بالظبي وقدها بالسيف اليماني . (المترجم).

وأنا الذي سأغادرها وسأمضي نحو بلاد جديدة دون نية في العودة. هلا معي، من يدري؟! أشيله من قلب الفتاة. آه، مؤكد أن هذه الفكرة قد أججت بداخلي ضروبا من الحسرة والألم.

كشفت لها عن جانب من الحقيقة. وتركتها تخمّن نواياي. وبما أنها كانت تحدّق إليّ وعيناها مغرورقتان بالدموع، فقد أغدقتُ عليها بأكثر المواساة رقة ونعومة وناديتها «أختي الصغيرة» موشكا على الاعتذار لها. وفي خضم الفعل ضممت رأس الفتاة البدوية الكئيبة إلى صدري...

.... كان لمضيفي حمولة ونصف من جلود الماعز والخرفان. ومنذ مدة أبدى رغبته في التخلص منها؛ لكنه لم يكن يستطيع بيعها أو مقايضتها إلا في سوق كبيرة، فهو لم يغادر وسط السهوب منذ سنوات عديدة. والآن ها هي الفرصة أتته، إذ لم تعد تفصلنا عن تندوف إلا مسيرة عشرة أيام.

اختار مضيفي موضعا يقف فيه المخيم. وبعد أن أسند إدارة المخيم لزوجته قرر السير نحو الواحة ولم يصطحب معه سوى بيظاني آخر وأنا. وما أن علمت بنوايا سفر إبراهيم ألححت عليه في اصطحابي معه في سفرته هذه.

كانت قافلتنا تتكون من خمسة جمال حُمّل اثنين منها بالجلود، وامتطى كل منا الثلاثة الباقين. وبوصف رفقائي

بدوًا أَخُطّط فإنهم لم يحملوا على سبيل الزاد والمؤونة سوى حفنات من حبات الذرة وقربة ماء.

صعدنا في طريقنا إلى اللقيقة الحمراء التي لم تطأها أرجل المستكشفين بعد.

وكما توقّعت ذلك كان السير إليها شاقا وفيها تجليت ضروبا من أنواع الحرمان. كنا نتوقف كل مساء عند غروب الشمس. وعندما كنا نصادف مخيمات البيظان كنا نلتمس منهم الضيافة كنا نأخذ الحيطة والحذر خفية على بعد خطوات من الخيام الأولى ثم يأتي البيظان نحونا فيسلّمون علينا ثم يضعون الأحمال عن جمالنا ويربطونها بقيود ويطلبون منا أن نَتْبَعَهُم. ثم أدخلونا إلى خيمة أغنائهم وأجلسونا في أفضل الأماكن. كان أول حليب حُلِبَ من نصيبنا وبعد الانتهاء من صلاة العشاء جماعة،...... وبعد أن تنتهي صلاة العشاء جماعة ويحين وقت الراحة كنا نحظى بغطاء كبير نتلفّف فيه ونمضي الليلة في دفء تام. كل هذا دون طرح أسئلة مطولة علينا، ولا أن يعرفونا ولا أن يسألونا مَنْ نحنُ، وإلى أين نمضي، ولا من أين أتينا. كانت واجبات الضيافة هذه تتم بانتظام، بنفس التقدير ونفس الإحساس، بدءا من ربّ الخيمة إلى آخر عبيده من عبيدهم. أحيانا لا نصادف إلا خيمة أو خيمتين معزولتين، يحرسها نساء في غياب الرجال. في هذه الحالة

يمنع علينا الدخول إلى الخيمة، وتبعا للعرف والعادة، نقف على مسافة عشرين خطوة عن المخيم. حينذاك تأتي مُضيفة أمامنا لترحب بنا وتطلب منا النزول عن مطايانا وتختار لنا منبسطا أرضيا يأوينا تدلنا عليه. ثم تمضي إلى الخيمة لتحضر لنا حصيرا، وكذا غطاء الأسرة خلال الليل ثم تفرشه على الأرض وتدعونا للجلوس عليه. وتحرص قبل مغادرتنا على إيقاد النار اتّقاء برودَة اللّيل، ملتمسةً منا الصبر إلى حين تهيئ وجبة العشاء.

أما إذا كانت الخيمة من اليسر والدعة، ولديها الكثير من النوق يُأتى لنا بقصعة كبيرة من الحليب. أما إذا كان الأمر عكس ذلك فإن النسوة يسارعن إلى طحن حبوب الذرة؛ بطواحين من حجارة. وبعد غلِي الدقيق في الماء يقدِّمن لنا نوعا من الحلوى نلتهمها بلذة.

للأسف لم نصادف خلال عشرة أيام من سيرنا غير خمس مخيمات، بحيث لم نجد بُدّاً خلال الأيام الخمسة الأخرى من النوم بدون عشاء وبدون حصير ولا فراش.

في مثل هذه الحالة يوزِّعُ علينا إبراهيم حفنات من الذرة ولم نجد بدا من الاكتفاء بهذا الأكل الهزيل بعد صوم أربع وعشرين ساعة.

كنت أعاني بالخصوص من البرد أثناء الليل. كانت

البرودة تنساب بكثافة شديدة فوق سطح الأرض الرملي والبرد في درجاته القياسية. لم يكن لدينا ما نغطي به أجسادنا، التي لم يكن يحول بينها وبين الأرض حاجز ما! وإذا ما أشتكيتُ أحيانا لإبراهيم فإنه كان يواسيني بتلاوة بعض الآيات من القرآن، مذكرا ببعض أحاديث الرسول ومنها هذا الحديث الذي يقول: «إن عِظَم الجزاء مع عِظَمِ البلاء»[23]



مضيق بين الساقية الحمراء ووادي درعة، رسم لـ ج. جيراردیت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب

(23) رواه الترمذي. (المترجم). وتتمة الحديث «..وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»

بعد عبور هضبة الحمادة وصلنا إلى تنوف لا أعتقد أن تكون هذه الأخيرة قابلة صغيرة لكن الواحة بالنسبة للبدو الذين لا توجد فوق أراضيهم مدن ولا قرى، هي بمثابة عاصمة. وبالنسبة لي يجب أن أعترف أنه عندما رأيت الواحة لم يختلف إحساسي عن إحساس البدو. وإن هذه الدُّور البيضاء الصغيرة التي أراها هنالك على سفح هضبة، وهذه النواة التي تحيط بها رؤوس نخيل باسقة تبرز في عُمق الهضبة الرملية لتملأ قلبي فرحا وبهجة. فمنذ أربعة أشهر وأنا أهيم على وجهي في صحراء لم أر فيها نباتا صغيرا، ولا نخلة واحدة، وبدت لي تنوف كحاضرة كبيرة... وفي صباح اليوم العاشر انضممنا إلى قافلة للبيظان كانت تؤُمّ تنوف. استيقظنا على فألٍ سعيد، واستأنفنا مسيرنا بسعادة غامرة. قيل لنا بأن الجمال نفسها كانت تتحسَّس الواحة لأنها كانت تسير بخطى طويلة ورؤوسها ممدودة. وصلنا إلى المنحدر الشرقي للحمادة منتصف النهار، وبدت لنا تنوف. توقفت القافلة، ونزل البدو من مطاياهم ثم شرعوا في تلاوة الفاتحة بعد أن سجدوا باتجاه الشرق ثلاث مرات وبعد أن أدوا صلاتهم نهضوا وأذرعهم إلى السماء يصيحون عاليا «الحمد لله».

مضت سنوات عديدة لم يقترب فيها أحد هؤلاء البيظان من حاضرة كهذه، ولذلك فهم يحمدون الله على أنهم وصلوا إلى مقصدهم سالمين غانمين.



الوصول إلى تنوف، رسم لـ ج. جيرارديه (G. Girardet) انطلاقا من رسم مبسط للكاتب

كان الذي أسَّس واحة تنوف عام 1857 وليٌّ من قبيلة تجكانت يُدعى بالحاج، وسرعان ما عرفت الواحة تطورا كبيرا، واكتست أهمية تجارية بالغة. وقد شُيِّدت عند سفح هضبة، وفيها توجد بعض البساتين، وبئر مشهورة بعذوبة مياهها. وقد بُنيت منازلها بالطين المجفف تحت الشمس، بدون دعامات أو عوارض خشبية. أما مآثرها العمرانية فتنحصر في مسجد واحد تُشرف منارته على الواحة كلها بحيث تُرى من بعيد على طريق تومبوكتو، وقبّة في القسم الجنوبي للقرية. ولأنها تقع في طريق قوافل السودان فهي تُمثّل، أفضل من واحة عين صالح الموجودة بالتوات، نقطة تقاطع مختلف الطرق التي تتجه من الشمال الغربي لإفريقيا

نحو **تومبوكتو**. فهناك خمس طرق تؤدي إليها، فالقوافل القادمة من السودان تترك قسما من بضائعها وكل عبيدها تقريبا. هكذا تركت قافلة **أكبار الكبيرة** لهذا العام المحمّلة بخمسمائة وعشرين من العبيد، ذكورا وإناثا، أربعمائة وتسعين زنجيا بيعوا وسيقوا إلى أرجاء إفريقيا الشمالية كلها. وعلاوة على ذلك تُدَخَرُ لهذه الصفقة كل البضائع التي لا يمكن لبيعها أن يغطي تكاليف رحلة طويلة من قبيل جلود الزرافات، و وَبَرِ الجمال أو الماعز ، وخلال مقامي القصير بالواحة صادفت في طريقي قافلة قادمة من السودان صحبة عبيد. كانت تتكوّن من حوالي مائتي جَمَل، ومثلها من العبيد. وأجد نفسي مضطرا إلى الاعتراف أن هؤلاء العبيد الشبّان بدوا لي في صحة جسمانية لائقة بخلاف ما يمكن أن يوهم به العبور الشّاق للصحراء الممتد من **أرّاون** حتى **تيندوف**. كان قسمٌ من الجمال محمّلاً بِقِربٍ مملوءة بالماء. وما أن ينفد الماء من إحدى هذه القرب في الطريق حتى يوضع مكانها صغيرٌ من صِغار العبيد. لم تكد القافلة تصل إلى الواحة حتى امتطى كل العبيد مطاياهم. وبين هؤلاء العبيد المائتين لم يكُن عشرون عبدا يشتكي من أي مرضٍ حقيقيٍّ.



قصر البيار ، رسم لـ ج. جيراردبت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب

منذ عشر سنوات تضاعفت مساحة تيندوف، مثلما تضاعفَ عدد سُكّانها. أقدّر أن عدد دورها في حدود المائتين. بدا لي سكانها أكثر سمرة من السكان المجاورين لها، ربما بسبب المكوِّن الزنجي . يلبسون الزي نفسه ولا تختلف عاداتهم عن عادات بيظان الصحراء.

مكثنا لأيام ثلاثة في تندوف لدى ساكن من **واد نون** يتاجر في الجلود والتمور. تمّت المقايضات عند مضيفنا، ومن ثمّ استأنفنا مسيرنا باتجاه الغرب نحو **رأس جوبي**.

لم تكن رحلة الإياب أقل صعوبة من رحلة الذهاب. فقد تعرضنا لألوان من الحرمان والتعب نفسه. أحيانا نجد بعض المخيمات التي تضيِّفنا، ونتغذى، أغلب الأحيان، على التمور التي حملناها معنا من تندوف، وننام مفترشين الأرض. وبدل أن نتابع طريقنا الذي سلكناه عند مجيئنا، اتجهنا قليلا نحو الشمال، رأسا نحو الشرق عابرين أرض التّكنَة.

لدى وصولنا إلى المخيّم وجدنا القبيلة في حداد. ففي غيابنا دخل شابّان من القبيلة في عراك. أخذ كل منهما سلاحه وأصيب أحدهما إصابة قاتلة. ولّى القاتل هاربا ولفَظَ الجريح أنفاسه الأخيرة بعد أن صارع الموت لثلاثة أو أربعة أيام. كانت جُثّة القتيل ممدة على الحصير في الخيمة، ومن حوله نساء المخيم اللواتي أطلقن العنان لعويل مروّع ساعات طوال. كن يلوين أذرعهنّ، ويشقْنَ لباسهُنّ، ويلطُمْن وجوههنّ، بينما وقف عدد من البيظان، عند باب الخيمة، ببنادقهم في يد وسُبْحة في الأخرى ، يرتلون سورا من القرآن.

كانت جنازة الشاب البدوي تتسم بطابع بسيط متناغمة أشدّ التناغم مع الوسط الذي أمضى فيه أيام شبابه. وبعد أن لُفّ في كفنه وُضعت جثته فوق جمل، وسار الرَّكْبُ نحو منحدر أرضي على بعد مسافة من الخيام حيث حُفرت حفرة. كان البيظان بوجوههم الملثمة يحيطون بالجثة وهم يرتلون بصوت حزين مقطعا من القرآن عادة ما يُقرأ في مثل

هذه المناسبات. أُنزلت جثة الشاب إلى الحفرة ووجهه نحو المشرق ثم يُردَم عليه التراب. كان وضعُ حجرٍ عند رأس الشاب البدوي المحارب هو العلامة الوحيدة الدّالة على قبره.

حُسِم قرار ذهابنا إلى جنوب المغرب بعد أيام من ذلك. قام إبراهيم بجمع بيظان القبيلة للاحتفال بخِطبتي. ومنذ وجودي بين البيظان نادرا ما توقفنا طويلا بأرض ما. قضى البدو الرحل وقتهم، يومين قبل الاحتفال، وهم يخوضون في أحاديث مطولة، ويباشرون أعمال النظافة الداخلية. وهم في ذلك يستعينون ببول الإبل، الذي يقومون بجمعه في أواني من الخشب تُستَخدم لغسل الأواني ، كما للنظافة وأداة للغسل، وذلك بسبب شح المياه. وقد بلغ ميلهم الفطري للادّخار والاقتصاد حدا جعلهم يستعملون هذه المياه في نظافتهم وغسل أوانيهم. وبعد الوجه واليدين يأتي دور الأواني الخشبية نفسها التي لا ينظفونها إلا نادرا وتحتفظ بسبب هذه الطريقة في النظافة ذوقا أمونياكيا(24) مُقرفا احتفظ فمي بذكراه لزمن طويل.

لن أثير استغراب أيّ أحد إذا قلتُ إن لباس البدو الرُحَّل وشَعَرهم مليء بألوان من الطفيليات كالقمل. ولهذا فهم يقضون وقتا طويلا في إزالته . ولذلك يتبادلون بينهم صنيعا بكثير من الرضا، يحدث ذلك بين النساء، أما الرجال

(24) غاز شديد الرائحة عبارة عن امتزاج الأزوت بالهيدروجين. (المترجم).

المتزوجون فيلجئون دون غيرهم إلى زوجاتهم أو بناتهم اللاتي يتكرّمن عليهم بهذه الخدمة.

يعتني البدو من الجنسين بشَعرهم ويستخدمون الزبدة المستخلصة من حليب النوق على سبيل الدهن. عندما تجف الزبدة تصلُح للربط بين خصلات الشعر وتجعل رأس بدوي من الرحل أشبه برأس المرأة الأسطورية التي تحمل فوق رأسها ثعابين. وتصفيفة شعر النساء في مفرطة في التعقيد ويحتفظن بها كذلك لأسابيع طويلة دون فكّها. وعلى سبيل الزينة يعلقون على شعورهن قطعا من العنبر والصدفات البحرية.

ينشغل النسوة ، في أوقات الراحة، بخضّ حليب النوق في قِرَبٍ بواسطة مِسند ثلاثي القوائم. ولتسريع عملية تخثر الحليب عادة ما يشعلون من تحت القرب نارا. وإذا كانت هناك فتاة عذراء فإنها تمضي معظم وقتها في غزل وبر الجمال بهدف صنع خيمة. وهي المساهمة العادية التي يمكن أن تسديها الفتاة العذراء لأهلها.

كان الاحتفال بخطبتي باذخا. وقد ذُبح لهذه المناسبة أربعة خرفان. أجلسوني جنب الفتاة البدوية التي كانت ملكة الحفل. غنّى الحاضرون، ورقصوا، بل وألقوا خطابات، وعندما عانقني البدو ،على الطريقة الصحراوية، واصفينني

بـ «الأخ»، نهض أحد الطلبة وارتجل كلاما رائعا، قال فيه إن الله منَّ عليّ بفضله وكرمه، وأنَّهُ عوَّضني، بعد كل المخاطر الجسيمة التي تعرضت لها، بأن أقضي بقية حياتي بين قطعان الجمال والفتاة الجميلة **العَزيزَة**.

انتهى الحفل تقريبا بالطريقة نفسها التي انتهى بها العرس الذي وصفته سابقا. لكن ثمة، مع ذلك، اختلاف وهو أننا لم ننفرد أنا والعزيزة ببعضنا تحت خيمة الزواج.

في الغد استأنفنا طريقنا نحو واد نون تاركين المخيم في المنطقة نفسها. اغتنم عدد من البيظان فرصة سفرنا لكي يذهبوا إلى سوق كلميم لبيع جمال صغيرة يريدون التخلُّص منها. كانت قافلتنا تتكون من عشرين فردا وخمسة وثلاثين جملا.

تتميز البلاد الممتدة ما بين **الساقية الحمراء** ووادي **درعة** بنتوء صخورها الجوفية، و يوجد بها أحواض أنهار كبيرة ، وطبيعة خشنة وهضاب بركانية وتشكيلة من المناظر التي تختلف عن رتابة الصحراء. وفي أحد هذه الأحواض بنى البيظان عام 1886 ضريحا من التراب تكريما لأحد الأولياء الذي يُدعى **بوبكر**. وهناك رأيت مثالا للتقدير والتبجيل الذي يكنه البيظان للأموات. كان المسافرون وهم يمرون

بجانب هذا الضريح الصغير، يأتون ويصلون أمام قبر الوليّ. ينزعون نعالهم قبل اجتياز عتبة الضريح، ثم يقبِّلون الحجر المنصوب عند رأس الوليّ، ثم يطوفون حول الضريح عدة مرات، ثم يجلسون القُرفصاء أخيرا قرب الحجر. بعد ذلك يناجون قبر الولي يحْكُون له عن متاعبهم، ويُفْضُون إليه بأفراحهم وآمالهم، متوسِّلين إليه أن يتوسّط لهم بالشفاعة عند الله يوم القيامة.

بعد اجتيازنا وادي درعة ، وكان أول نهر جار أصادفه في مساري، وصلنا إلى أول قرية في جنوب المغرب نصادفها في قدومنا من الصحراء. وتسمى **قَصْرْ البيّارْ** [قصر الآبار] وهي مُشيّدة من الطين اللازب، عند منحدر التل.

فبأي فرح استقبلتُ هذه القرية البائسة الصغيرة التائهة عند تخوم الصحراء ! كانت هذه البلاد مع ذلك موحشة وحزينة. والأشجار الوحيدة التي كانت تقطع رتابة هذا المشهد عبارة عن أشجار من التين التابعة لمنطقة الأمازيغ شكّل لونها الداكن بقعة على سطح التل الموحش. ومع ذلك بدا لي هذا المنظر رائعاً. وداعا للصحراء، ووداعا لضروب الحرمان المختلفة، ووداعا للبدو قُساة القلوب! هاهي حواضر جنوب المغرب الغنّاء تمتد أمامي. إنها بوابة المغرب. كان ذلك مقدمة للدخول إلى عالم الحضارة. ومن

بعيد تترآى لي، بين سلاسل الجبال، مراعي خصبة، وقرى عديدة، وسهول خضراء. كان ذلك إيذانا بدخول سوس.

أيقظ هذا المنظر في نفسي ذكريات الوطن الذي ظننت منذ لحظة أنني لن أراه مرة أخرى أبدا.

-8-

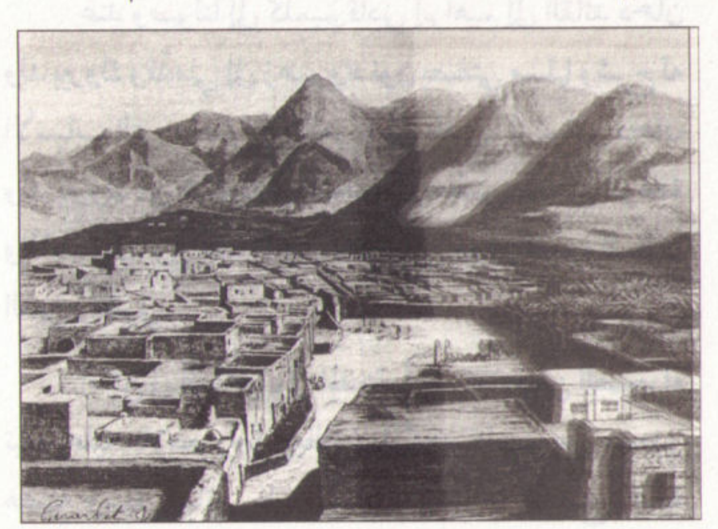
وصولنا إلى كلميم - ضيافة زعيم واد نون- الساكنة- سوس- الأمازيغ الشلوح- جمهورية إسلامية- الوصول إلى المغرب- لقاء مع احد الأوروبيين- أسري من جديد- منقذي الخائن- الخلاص.

عند وصولنا إلى كلميم قادني إبراهيم إلى القائد دحمان ولد بيروك وقدّمني إلى زعيم واد نون بصفتي مسلما وشرح له الأسباب التي دفعتني إلى العودة إلى بلدي. لم تساور دحمان ولد بيروك أي شكوك في شخصي وخصّني بحسن الوفادة والاستقبال. وفي هذه المدينة كان فراقي مع إبراهيم والبيظان الذين رافقوني.

أمكن لي أن أتجول في المدينة بأمان كقادم من الصحراء تبدو عليه ملامح رجل بيظاني. شُيِّدت كلميم على منحدر هضبة وسط بساتين طرية ونديّة. لسورها المزدوج خمسة أبواب. ويحتل فيها اليهود حيّا خاصا بهم كما هو الشأن في كل المدن الإسلامية. غير أنهم يتمتعون باحترام أكبر بالقياس إلى

بلقي المغرب. وفي كل سنة يُنَظَّمُ فيها معرض كبير ياتي بدو الصحراء ليتزودوا منه بالمؤن والذخيرة.

ويتوسط سكان واد نون ما بين البدو الرحل وبين أمازيغ سوس. فهم يلبسون لباس الصحراويين ويتكلمون لهجتهم. يُشرِف على هذه الإمارة منذ قديم الزمان أسرة عريقة من أولاد بيروك. وقد صمدوا لسنين طويلة في وجه الأطماع السلطانية لملوك المغرب، لكنهم انصاعوا انصياعا كليا عام 1886 للمولى الحسن إبان بسط هيمنته على سوس. واليوم تُشرِف حامية مغربية قوية على مدينة كلميم.



مدينة كلميم عاصمة واد نون، رسم ج. جيرارديت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسَّط للكاتب

والنظام السائد في الإمارة نظام بطريركي تماما، وأكثر الوادنونيين بساطة يدخل بِحُرِيَّة إلى منزل القائد إذ يعقد هذا الأخير جلسات كل يوم عند مدخل بيته، ويشرف بعناية على الشؤون الأهلية مثلما يشرف على أمور الإمارة. عندما قدّموني له كان يحضر عملية تصفيح حميره وبغاله. يبدو دحمان ولد بيروك، رغم ثرائه، رجلا بسيطا جدا في أذواقه وهيئته.

وبعد أيام من الراحة عبّرت لولد بيروك عن رغبتي في الذهاب إلى المغرب. فوضع تحت تصرُّفي كل شيء، ووهب لي مطية وجنديا ليكون مرشدا لي في طريقي. ولأنني كنت شبه عار، وألبس ثيابا بدوية، أعطاني جلابة وهي لباس فضفاض من الصوف الأبيض، وعند وداعه لي أوصاني بطلب الضيافة عند أخيه عابدين الذي كان في زيارة لمولاي السلطان.

وعلى بُعد ساعتين من كلميم وصلنا إلى حدود أيت باعمران. تفصل سلسلة جبلية، تتجه من الشرق نحو الغرب، أراضي سوس عن واد نون. ولما أننا انطلقنا باكرا، فقد توقفنا للحظات عند واحة صغيرة رائعة في مجرى وادي أم القصاير. كنا في قلب بلاد الأمازيغ سنعبرها إلى غاية جبال الأطلس، بلاد سوس الرائعة؛ هذه الواحة هي من الروعة بمكان، لامتلائها طراوة وخصوبة، وتتوفر على أحواض رائقة وصافية، ونخل كثيف، إلى حدّ أن كل المسافرين

الذين يمرون بها يتوقفون عندها للتملّي بجمالها. وُضعت هذه الواحة تحت حماية بركة ضريح وليٍّ تمَّ تشييده وسط المكان أظنه **سيدي موسى**. عند مرورنا كان أربعون أمازيغيا قد أخذوا فيها راحتهم تحت النخيل، فيما كان جماعة من الشبان يسبحون في مياه الحوض الصافية. كان بعض هؤلاء الأمازيغ على معرفة باللغة العربية فَدَخَلْتُ في حديث معهم. كانوا يكلمونني عن المغرب ،وعن السلطان، ويشتكون من التسلُّط الذي فرضه عليهم السلطان. كانت الحرية دوما تسكن جبالهم ولا يستطيعون التأقلم مع الهيمنة التي فرضتها عليهم الإدارة المغربية. فيا لها من مفارقة مع بدو الصحراء !

لم يكن هؤلاء يحدثونني سوى عن قراهم وحقولهم ومحاصيلهم. ولقلة تعصُّبهم فهم لا يخشون أبدا الاتصال بالأوروبيين، وقد عبر الكثير منهم عن رغبته في الذهاب للسكن بالجزائر من أجل رؤية السكان الأجانب. تنم وجوههم الوديعة والهادئة في الحال عن اللطف، وأنا على يقين أنني لو أخبرتهم بأنني نصراني لاستقبلوا اعترافي بالتّسامُح نفسِه الذي يُشكِّل جوهر أخلاقهم وطباعهم.

ظلّ سوس، حتى حملة 1886، مستقلاً، مُشَكِّلا دولة لا نظير لها ، في الشكل بدون شك، إذا قيست بأي حكومة مسلمة. كان جمهورية حقيقية. كانت كل أسرة أو قبيلة تضع عليها شيخا منتخبا تتمثل مهمته، كحَكَمٍ، في تسوية

الخلافات ذات الطابع الخاص، و حماية امتيازات المجال الأرضي بالخارج. لكنهم لم يكونوا يدفعون جزية ولا ضرائب، ويعيشون في استقلال تامّ.

جاءت الإدارة المغربية وغيرت من كل هذا، مستغلّة نفوذها لكسر شوكة الأمازيغ المساكين الذين كانوا عاجزين عن تحمل تسلُّط من هذا النوع. يتحدث الأمازيغ لغة لا علاقة لها باللغة العربية تُسمّى **تشلحيت**. اجتزتُ في البداية القسم الجبلي لـ **أيت باعمران**، وهي أكثر المناطق ثراء ونفوذا في سوس. وأخبرني الأهالي أن ثمة مَنْجَماً للفضة يستغله رجال السلطان بالقرب من **أرخصيص**.



واحة في أيت باعمران، رسم لـ ج. جيرارديت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب



جلسة للبربر، رسم لـ ج. جيرارديت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسَّط للكاتب

إنَّ ثراء هذه البلاد ليبرر إلى حدٍّ ما غيرة مولاي الحسن الذي يخشى، وقد يكون على صواب، أطماع الأوروبيين فيها. وكما قلتُ في بداية حكيي هذا فإن الأوامر التي صدرت للقائد كانت من الصرامة بحيث إنهُ لو عرفوا حقيقتي سيُقبَض عليّ حتما وتُوضع الأغلال في رجلي.

لم أستطع الإرتواء من جمال وروعة جبال سوس، فتركتُ عينيّ المتعبتين بمشاهدة قفر الصحراء وجدبها لمدة خمسة أشهر، تتمتّعان، بغبطة وفرح، بمروجها الخضراء الخلّابة الموشّاة بالزهور، وأنهارها التي لا تنضب، ووديانها التي تسيل بالغلّات على اختلافها. في كل وقت كنت أصادف في طريقي القرى، والسكان وهم منتشرون في الحقول يعبّرون عن درجة حيوية هذا الشعب الذي حبته الطبيعة بجمالها.

بعد أن سِرتُ بمحاذاة السّاحل بدءا من أكلو ومسّة وعبور نهر وادي سوس الرائع وصلتُ إلى أكادير الذي يجعل منه موقعه عند سفح الأطلس، في عمق خليج صغير، ميناء رائعا. دُرْتُ على جبال الأطلس عند رأس غير Cap Ghir، وبعد أن صادفتُ في طريقي منطقتي حاحة وأولاد بو السبع، وصلتُ إلى مراكش، وهي إحدى المدن الرئيسية لمملكة المغرب.

وتبعا لتوصيةِ القائد **بيروك ولد دحمان** سأذهب لطلب الضيافة من أخيه **عابدين.**

تزامن وصولي إلى مراكش مع حلول وفد من الإنجليز مع مجموعة من السُّياح كانوا يرافقون السير **كيبربي غرين** (Kirby Green) وزير بريطانيا العظمى. وقد شاءت الصدف أن يأتي أحد المسافرين الإنجليز،وهو م. **فيرغسون** (M. Ferguson) لزيارة مضيفي **عابدين.** ولمّا دخل الشاب الإنجليزي إلى بيت **عابدين،** متبوعا بمترجمه، وجدني أتحدثُ معه تحديدا. منذ مغادرتي **لجزر الكناري** لم أشاهد أوروبيا واحدا. ومن غير شكٍّ أنّ ملامحِي عبَّرت عند هذا الظهور المفاجئ بما يختلج في نفسي من مشاعر. لاحظ السائح، دهِشا من رؤيتي، أنني نصراني فطفِق يستفْسرُني في الحال.

آه ! لقد بلغ من سعادتي بسماعي لغة حضارية حدّا جعلني، أن بدأت، غير مكترث بالوضعية الحرجة التي وجدتُ فيها نفسي، أطرح عليه سيلا من الأسئلة، نهِماً بدوري إلى المعرفة. فهل كنتُ سأتصوّر أنه بعد أن نجوتُ من بيظان الصحراء سأتعرض لخطر مُـحْدِقٍ بالمغرب في مدينة يزورها الأوروبيون، على بعد ثلاثة أيام من موكادور؟ أطلعَني السيد **فيرغسون** أن خبر موتي قد شاع لمدة طويلة ، وأن الناس جميعا، حتى في موكادور، يحسبونني أسيرا في الصحراء، وأنَّ

صحف الكناري أذاعت بأن البيظان يطلبون فدية مقدارها ثلاثة آلاف دورو، وأن السيد. م **لاكوست،** قنصلنا هناك، كان على وشك إيفاد أحد الأهالي لمُفاوضة البيظان على إطلاق سراحي.

اقترح عليّ السيد **فيرغسون** أن آتي عنده كي نتحدث بحرية أكثر. قبلت مقترحه عن طيب خاطر، وتبعتُه بعد أن استأذنت مُضيفي. وفي غفلة مني أمر الشيخ عابدين أحد العبيد ليقتفي خبري. كان والي المدينة قد تنازل للشاب السائح عن منزل بالقرب من جامع الكُتُبيَّـة الشهير، وسَط بستان رائع تحفُّ به أشجار البرتقال الرائعة. نصَبَ هذا الأخير خيمته وسط البستان ليعيش على النمط الشرقي في قلب الحاضرة الكبيرة مستمتعا وسط الأشجار المزهرة، والأحواض الرقراقة وبكل مفاتن الريف المغربي.

أدخلني إلى خيمته ، وبعد أن أحضر الشاي، تحدثنا طويلا. كان يسألني عن رحلتي وكنتُ أنا أمطره بأسئلة عن أخبار أوروبا التي حُرمتُ منها زمنا طويلا. قضينا ساعات طوال في هذه المحادثة الحميمية. كان مؤذن الصلاة في الجامع المجاور ينادي لصلاة العصر بصوته البطيء والرتيب عندما استأذنني صديقي الجديد كي يقودني لدى الوفد الإنجليزي لإعلان مقدمي السعيد. اعتذرتُ له بدعوى أن ثيابي العربية خرقةٌ رثّةٌ، فردّ عليّ:

— لا تكترث لذلك. سأعطيك لباسي الإسلامي. ثم نادى خادمه وجاء في لباس مغربي غاية في الروعة.

عندما أحسست بأنسجة الحرير الناعمة المتلألئة تنبسط فوق جسدي المحترق بالشمس انتابتني سعادة لا توصف. بدا لي، وأنا أخلع عني الأسمال التي كانت عليّ كما لو كنت أهجر ستة أشهر من البؤس والشقاء.

امتطينا بغلين ببردعتين بلون قرمزي وبخطوات حثيثة اتجهنا نحو قصر المفوضية الذي يتخذه السفراء الأوروبيون إقامة لهم.

استقبلني السير كيربي غرين، وزير بريطانيا العظمى، استقبالا حارا، كان قد سمع عني كثيرا. كما رحّبت بي ميلادي غرين وقضيت ساعات حلوة وسط أعضاء الوفد الإنجليزي. قادني السفير إلى باب البستان وقبل أن يشدّ على يدي قال لي:

— عليك القبول بضيافة ميلادي غرين. فلن تكون في مأمنٍ بمراكش وسط المسلمين.

شكرته كما ينبغي وشرحتُ الأسباب التي دفعتني إلى أن ألعب دور مسلم حتى النهاية وضرورة أن أحافظ على تنكري إلى أن أصل إلى الشاطئ. أضاف قائلا:

— مهما يكن، أنا رهن إشارتك إذا احتجت لخدماتي....

ثم استأذنت في الانصراف.

عدتُ إلى مضيفي عابدين مبتهجا فرحًا بهذه الزيارة، سعيدا بالأخبار التي بلغتني. وسلم الشيخ عابدين عليّ ووجهه ابتسامة استخفاف، ولم يرُدّ على تحيّتي سوى بكلمةٍ واحدة هوَت من فمه ببرودةٍ وحزمٍ مثل صفيحةٍ من حديد:

— نصرانيّ!.

نظرتُ إليه مستغربا وبلهجة جازمة قال مواصلا:

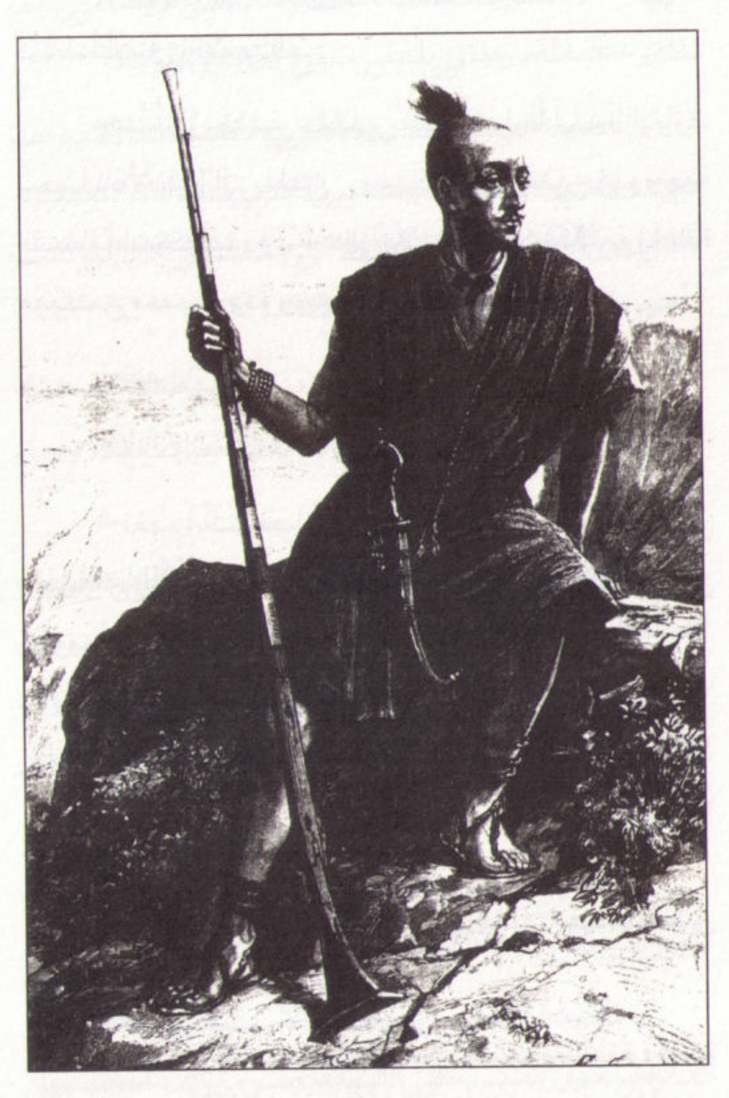
— نعم، أنتَ نصرانيٌّ، وقد خدعتنا والمسلم لا يقبل الهدايا من الكفّار ولا يذهبُ عندهم ولا يشرب الشّاي من كؤوسهم، أنت كافر.

بقيت شاردا مذهولا. وأضاف قائلا بنبرة تهديدية:

— نعم، أنت نصراني، وقد أخبَرْنا السلطان، ونحن ننتظر أوامره بشأنك.

تلفّظ بشكل مهيب في ملامحه ودخل في صمت مطبق دون أن يردّ على اعتراضاتي عليه.

وقفت واتجهتُ باستياءٍ نحو الباب وبإشارة واحدة منه وَقَفَ فجأةً العبدان اللذان كانا جالسين على الأدراج الأولى للسُّلم فاعترضا طريقي. كانا عبدين سودانيّين بقامة



كاميل دولـــز

هائلة، ووجهٍ بَهيمِي، وعضلات قوية ويدين عريضتين متينتين ساحقتين. تراجعتُ أمام هذين الكائنين عديمي الإحساس اللذين يقفان بصلابة كأنهما تمثالان من البرونز شَبيهيْنِ بأبي الهوْل. وأمام عجزي توجهتُ نحو الشيخ **عابْدين** فلم يجِدْ غضبي إلا هذه العبارة اللعينة التي لطالما ردّدُوها على مسامعي خلال رحلتي: «تبّا لليوم الذي وُلدتَ فيه!»



مرة أخرى مقيّدَ القدمين، رسم لـ ج. جيرارديت (J.Girardet) انطلاقا من رسم مُبسّط للكاتب

كان قد مضى من الليل الكثير، وانصرمت ساعات طويلة على الطّلْقات النارية إيذانا بغلق أبواب المدينة، عندما اقتحم الغرفة التي كنت أستريح فيها خمسة حراس سود من حرس السلطان. كان رأسي لا يزال يعجُّ بأحداث اليوم، وعيناي مرهقتان، وكنت أحلم بأوروبا، وبأفراح العودة،

ومعانقة أهلي. عندها هزني وقَضَّ مَضْجَعِي ضوءُ مصباح. رفعت بصري ورأيتُ الزنوج الخمسة ورؤوسهم مغطاة باللثام يحملون سيوفهم. فهمتُ لماذا جاؤوا، ثم نهضت. اقترب مني الذي يبدو أنه زعيمهم وأمسك بطرف من ثوبي وأمرني بأن أتبعه.

أمسك بي الجنود، وغادرنا المنزل حاملين أمامنا مصباحا، سالكين الدروب الضيقة والمظلمة لعاصمة المغرب. كنا نسير في صمت في طريقنا. كنا نصطدم أحيانا بأجساد بعض المتسولين النائمين الذين يستيقظون ويلعنوننا بضروب من السباب ثم يعودون إلى النوم من جديد في ألبستهم المتسخة دون أن يتحركوا من أماكنهم. أحيانا نصادف تحت كُنَّةِ باب من الأبواب ظلا يهتز على ضوء المصباح ليلا، شيء تحت ثياب بالية ضخمة من الصوف بلا شك يتعلق الأمر بنسوة ذاهبات لموعد ويخشين أن يفاجئهن جنود الوالي متلبسات. أحيانا أخرى يتسلل طيف أمامنا على طول الأسوار ليختفي عند زاوية من أحد المنازل. ربما كان أحد الأهالي من خلفنا يشاهد موكبنا العجيب بذهول، ويسير مرتعبا في الظلام مثل عملاء السلطان.

وصلنا بعد سير طويل قرب دار المخزن عند أحد ملحقات سكن قائد القصبة. اجتزنا بعد أن دخلنا دهليزا ضيقا مساحات عديدة ووصلنا في الأخير إلى غرفة في الطابق

السفلي منخفضة وضيقة ليس فيها غير حصير مصنوع من الأسل، وقربة ماء. كان رجلان بانتظارنا يحمل أحدهما مصباحا زيتيا. ارتعدت فرائصي عند رؤيتهما. فقد كانا يحملان مطرقة خشبية وأغلالا من حديد. وعلى الأرض سندان مغروز. بدأ الرجال في الكلام بينهم بصوت خفيض. صرخ زعيم العصابة في وجهي قائلا:

— هيا، انبطح!!

لم أتحرك. فأعاد الكرة قائلا:

— انبَطِحْ.

كان في نبرته هذه المرة نوع من الغِلظة والتهديد جعلني أسقط أرضا. أمسك بي رجلان بقوة من كتفيّ، في حين ارتمى الحدّادُ على قدميّ، ووضعهما على السندان ثم دقّ من فوق كعبيّ الحلقتين الحديديتين الموصولتين بشدة بقضيب حديدي.

دقائق بعد ذلك خرجتِ العصابة.. كان الباب الثقيل الذي أُوصد عليّ مع قَعْقَعَةِ الأقفال أشبه بصخرة يرنّ صداها على قبري. بقيت وحيدا في ظلام دامس، مضطجعا دون حراك على الأرض، بقدمين مشلولتين، مرتعشا من البرد والحمّى. كنتُ كمَن دُفِنَ حيّا في سجن دَهْرٍ. وداعاً للأحلام الذهبيّة، والمشاريعِ المستقبل، ووداعاً للقبيلة التي

ادّخرتها لأمي عند عودتي ! صار كل شيء خرابا في خراب، تهاوى كل شيء من حول هذا الفتى المراهِق الذي كنتهُ... ثمَّة عذابات لا يمكن للمرء أن يصفها ! لكنني أعرف الآن كيف يُمْكن للرؤوس أن تشتعل شيباً في بضع ساعات، وكيف يمْكِن لليلةٍ واحدة أن تُحوِّل فتى إلى شيخٍ. عند الفجر أيقظتني قعقعة الأقفال من سباتي العميق. ظهر ثلاثة رجال على عتبة الباب ، جنديان، وثالثهما يلبس زيا إسلاميا، لكن بهيئة أوروبية تماما.

جلس العربيان القرفصاء عند عتبة الباب ، بينما تقدّم الغريب نحوي وقال لي بفرنسية ممتازة :

– من أنت؟ قيل لك أنك فرنسي. أجبتهُ:

– صحيح.

– لكن بالله عليك ، أنت أيضا، ألستَ أوروبيا؟

– تقريبا أنا مِن الليكسمبورغ، بلجيكي.

– بلجيكي ! لكن هذا التنكر...

– آه ! إنها حكاية طويلة. قاسيتَ ، أنا كذلك قاسيتُ. لكن لماذا وضعوا القيود في قدميك؟

– هذا ما استغربت له أنا أيضا أكثر منك.

– غريب أن يقوم السلطان بحبس أوروبي بهذا الشكل، ينبغي أن يكون وراء سلوكه هذا دوافع غاية في الخطورة. هل ارتكبتَ جريمة؟

– لا ذنب لي، ما فهِمتُه أنّ السلطان حجزني لأني عبرتُ إمارات الجنوب المغربي فظنّ أني مسافر أحمل معي وثائق.

– حسبُكَ هذا، لكن تعرف بدون شك أن عدالة السلطان فظيعة، وكل مَن دخل سجون السلطان لا أمل له للخروج منها أبدا. بالأمس كنتُ بدار المخزن عندما أخبرني قائد القصبة بأن أوامر عليا صدرت للقبض على جاسوس نصراني. وحسب عابدين الذي كان حاضرا أثناء لقائك بالسائح الإنجليزي علمت منه أنك فرنسي وأتيت لمساعدتك.

شددتُ على يده، وضغطت عليها بقوّة وصحتُ متحمّساً:

– لن أموت في هذه الزنزانة المروّعة ! فحُسْنُ طالعي لم يخُنّي أبدا. الربُّ هو الذي قادك إليَّ.

في أثناء هذا الحوار كان الجنود المغاربة الذين لم يتمكنوا من متابعة حديثنا مقرفصين عند الباب مديرين ظهورهم، وبدوا غرباء تماما عن هذا المشهد.

قلتُ له:

– لكن كيف استطعتم الوصول إليّ في هذه الزنزانة؟

– اسمع، سأقص عليك حكايتي باختصار، وستوضّحُ لك سبب زيارتي. أنا أحدُ الفارّين من الفرقة الأجنبية. منذ سنتين غادرتُ، صُحبة رفيقين، حامية سيدي بلعبّاس، وعبرنا الحدود المغربية، وسِرنا من غير مؤونة، ثم واصلنا نحو فاس، وفي الريف جرَّدنا الأمازيغ من ملابسنا وتركونا عُراةً في الطريق. كان الفصل شتاء وكان الثلج يكسو الجبال وهِمنا عراة كالحيوانات على وجوهنا في سهول الريف ثلاثة أيام، نتضور جوعا، لا نقتات إلا على الأشجار. كنا على وشك الموت عندما عثر علينا زعيم أمازيغي، وأخذنا معه. ألبسَنا وأفهمنا أننا سنلقى معاملة حسنة إذا رغبنا في الدخول إلى الإسلام، فوافقنا...امتهن كل واحد منا حرفة. كنتُ أنا صانع أسلحة. أرسل بي القائد الذي استقبلني إلى السلطان رفقة أحد أصحابي الذي كان صائغا، وتبِعنا السلطان في رحلاته من فاس إلى المغرب. كنا قد اعتدنا التكيُّف مع حياتنا الجديدة، حينما وقع حادث فأظهر لي وضعيتي البئيسة. أنتم تعلمون أن الأهالي ينظرون إلى الكافرين نظرة سوء. وقد أثرنا أحقاد الأهالي في كل مكان. فمنذ شهر فقط مات صديقي مسموما، وكنتُ الوحيد في جنازته، وحُفرت له حفرة خارج أسوار المدينة كما لو كانت لحيوان. ساحت دموع كثيرة من

عينيّ عندما رأيتني وحيدا وراء جثمان صديقي في دروب مراكش الضيقة. مضت عليّ عشر سنوات لم أبك فيها أبدا. ومنذ ذلك الوقت وأنا حريص على نسيان وضعي، أخدُم الأهالي خدمات صغيرة، عاملا على تحسين صورتي عندهم، ولديّ منافذ في كل مكان. وهذا ما أتاح لي الوصول إليك. وصباح هذا اليوم علِمتُ بالقبض عليك وقررت أن آتي لرؤيتك.

قلت له:

– أنقذني وسأمهد لكم السُّبل للعودة إلى وطنك.

– أوه! إن صنعتم ذلك فستُنقذون بذلك حياتي كسعيي الآن لإنقاذ حياتك. أرني الحديد الذي وضعوه في قدميك.

مددت رجليَّ فتفحّص للحظات القضبان الحديدية ثم قال:

– هذا ما سنقوم به، سأعود الليلة لرؤيتك، وسآتي معي بشاي ومُخدر لننوِّم به الحراس، ونقرِض الحديد بمبردٍ، وستتطلب منا العملية ربع ساعة من الوقت، وفي آخر الليل سأصحبُك إلى مكان آمن.

أجبتُه:

– هناك طريقة أكثر بساطة. أعرف الوزير الإنجليزي. اذهبْ فأخبره.

– أنت تطلب مني شيئا قد يكلِّفني غاليا. أنا أخجل من الظهور أمام موظف مسيحي، لكن سأمضي لرؤيته مع ذلك.

خرج وهو يشدُّ على يدي. كان يحمل معه آمالي كلها، حياتي!

ما أن عَلِم السير **كيبري غرين** بالخبرِ حتّى ذهب إلى السّلطان كي يُطلق سراحي، وسُرعان ما أثمرت مساعيهِ الحميدة، فصَدرت الأوامر بتكسير الأغلال من قدميّ، وغلَب الفرحُ والسّعادة على الألم الجسَدي. بدتْ لي الطبيعة، لدى خروجي من زنزانتي ساحرةً، و خُيّل إليّ أنني لم أر الشمس أكثر بهاءً من ذي قبل.

هكذا تمكنتُ، بفضل أعضاء الوفد الإنجليزي ومنقذي المارق الذي رحّلتُه إلى بلده فيما بعد، من الدخول إلى **موكادور** حيثُ أتاح لي قنصلنا الظّريف السيد **لاكوست** كل الإسعافات التي تتطلبها حالتي. وبعد مقام قصير بهذه المدينة ذهبتُ كي أرتاح لأسابيع في مدينة **آسفي** قُرب أحد أصدقائي؛ الدكتور **آلار (Allard)** الذي خصّني بحُسْن

الضيافة، على النمط الاسكتلندي. وبعد أن نزلت ضيفا على السيد م. **بريدو (M . Brudo)** وكيلنا القنصلي في **مازغان** ركبت السفينة نحو أوروبا.

هذا ملخّصُ وقَائعِ هذه الرّحلة التي بدأتْ، بالحديدِ وانتهت بالحديدِ، كما كتبتُ لجمعية باريس الجغرافية عند وصولي إلى طنجة، بما توالى عليّ فيها من ضروب الأفراح والعذابَات، وكلّفتني أعمق المشاعر التي يُمْكن أن يُحسّ بها الرحالة. وأنا مَدينٌ للقدَرِ، صَديقي، بتغلُّبي على كل هذه العوائق. فقد تمكنتُ رغم كل ذلك من الإتيان بالعديد من الوثائق الجغرافية حول الحواضر غير المستكشفة من ذي قبل. وإنّ الارتياح النفسي بكوْني أسْديتُ خدمةً، مهما تكُنْ متواضعةً، لعلم الجغرافيا، هو أحلى مكافأة لي بهذا الصّدد.

كاميل دولز

الفهرس

إصدارات المركز

1. المحجوب ولد الطيب ولد يارا، ديوان المحجوب (ديوان شعر).
2. أحمد مولود ولد أيدّه الهلال، مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاته، وودان وتيشيت وشنقيط.
3. محمد سالم بن محمد امبارك بابا، زاد ناس (ديوان شعر).
4. محمد بوزنكاض، التواصل بين بلاد البيظان والمشرق العربي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.
5. هيبتن الحيرش - حمادي هباد، أسا ديوان الصالحين.
6. الشيخ محمد المامي بن البخاري الباركي (1202هـ-1282هـ)، كتاب البادية.
7. الشيخ محمد المامي بن البخاري الباركي (1202هـ-1282هـ)، ديوان الشعر الحساني (لغن) وشرحه.
8. الشيخ محمد المامي بن البخاري الباركي (1202هـ - 1282هـ)، ديوان شعر الفصيح.
9. الطاهر خنيبيلا، ديوان البوح بالمكنون من ألوان الموزون.
10. سيدي أحمد ولد الأمير، المجال الموريتاني.. مقالات في التاريخ والثقافة.
11. محمد المختار ولد السعد، الإمارات والنظام الأميري الموريتاني النشأة والأطوار السياسية الكبرى.
12. سيدي بن الزين العلوي (ت.1354هـ/ 1936م)، كتاب النسب في أخبار الزوايا والعرب، تحقيق ودراسة أ. د. حماه الله ولد السالم.
13. تنسيق محمد بوزنكاض، الصحراء في العلاقات المغربية الإفريقية.
14. العزيزة منت البرناوي، الأصوات والحركات في الحسانية.
15. أسويح محمد واليزيد السالك، شَذَرَاتٌ مِنْ أَدَبِ الْبِيظَانِ (شعر حسّانيّ).

16. عبد الحميد فائز، الحرب في المجتمعات الرعوية : آليات إنتاج العنف في المجتمع البيضاني قبل الاستعمار.
17. حماه الله ولد السالم، حركةُ المُرابطين بين العصبيّة و الدّعْوة.
18. خالد بن الصغير طرفاية، المخزن ومحطة مكنزي التجارية برأس جوبي 1895-1876
19. محمد سبى، إسبانيا والصحراء ما بين سنوات 1934-1975 دراسة تاريخية واجتماعية.
20. السالك بوغريون، تِقنيَّاتُ التَّعبير في الشِّعر الحسَّاني.
21. عـزة بـيـروك، الغناء الحساني بين التنظيم والتلقائية.
22. خوليو كارو باروخا، دراسات صحراوية، ترجمة أحمد صابر.
23. Simona Corlan – Ioan, *Tombouctou- lieu de mémoire. L'histoire d'une légende partagée.*
24. Pierre Bonte, *L'Ouest saharien. Les récits d'origine.*
25. Elemine Ould Mohamed Baba, *Toponymes et anthroponymes du sud-ouest saharien : approche chronologique.*
26. *Etudes, notes et documents sur le Sahara occidental.*
27. Abdel Wedoud Ould Cheikh, *Tribu et Etat en Afrique.*
28. Mohamed Ben Attou, *Tan-Tan : Un espace partagé. Mondialisation économique, fait urbain et gouvernance locale.*
29. **Mohamed Ben Attou**, *Tarfaya : Une ville du littoral saharien à la recherche d'un développement stratégique.*
30. Mohamed Charef (Sous la direction), Mohamed Ben Attou, M'hamed Wahbi, *Migrations internationales Marocaines aux Canaries.*
31. Mohamed Mahdi, *Pastoralisme nomade au Sahara Mercantilisme, survie et hédonisme.*